المكتبة التاريخية
للفتيان والفتيات



ملكة اليمن

* ملكة اليمن : د. عارف تامر
* الطبعة الأولى ١٩٨٦

* دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية - اللاذقية ص.ب ١٠١٨ هاتف ٢٢٣٣٩

ملكة
اليمن

الفصل الأول

دنفت الشمس ، وأرخى الطفل على جذوع الاشجار رشاشاً من السحر ، وظلالاً من التبر ، وتراءت قمم جبال «حراز» اليمنية الشماء من بعيد ، وفي طلعتهـا تراقصـت موجـات من العزة والشمـوخ ، وهبّـت نسمات العشيّات رخية تداعـب اوراق الاغصـان ، وبراعـم الـورد . . . وكل شيء قد بدا جميلاً فاتناً . . . . سكون رائع تغرق في عبابه النفـوس المطمئنـة ، وطبيعة جزلى تعاظم خصبهـا وثراؤهـا ، ومسـاء اراق على القمـم والسفوح والهضاب اللألأ والظلال .

في تلك الساعة الهادئـة كان القـاضي «محمـد الصليحـي» يجلس في احدى غرف منزله الريفي الجميل وحيداً ، وهو مأخـوذ بجمال المشهد المتجلي امامه من خلال نافذة غرفته المطلة على الوادي الوريف ، إلا ان افكاره كانت تجتاز الابعاد النائية ، وتذهـب في تصوراتها النواحي القصيّة ، وهي في تشاغل وقلق على ولده الصغير «علي» الـذي غادر المنـزل منـذ الظهـيرة ، ولما يعـد خلافاً لعادته . . . . وانه كذلك اذ يدخل «علي» وعلى محيّاه ابتسامة

الفتوة البريئة فقال :

عم مساءً ياأبي

لم تعودنا على مثل هذا الغياب الطويل ياعلي . . . فأين كنت . . . . ولماذا تأخرت ؟

كنت عندالمعلم السيد«سليمان بن عامر» . . . وقدنسيت ان اخبرك قبل ذهابي اليه . . . . . انه الآن يعلمني اللغة والاداب والمنطق والفلسفة .

حسناً ولكنني اخشى عليك من هذه الفلسفة ياعلي . . . . فكثيراً ما جرفت في تيارها كبار الرجال ، وحولت ايمانهم إلى كفر والحاد . . . فكيف بمن كانوا في سنك ؟

لاتخف ياأبي . . . فالدين سيبقى عندي في حرز حريز . . . وكيف ابتعد عن الدين ، وأنا من بيت يعبد اهله الله ، ويخافونه ، ويؤمنون بانبيائه ورسله وكتبه .

سأطلب غداً من أخي سليمان عندما يأتي لزيارتي بأن يدرسك ايضا تاريخ اليمن والحضارةالعربية القديمة التي انبعثت منه . . . فلليمن ياابني تاريخ عريق جدير بالدراسة ، واني انصحك ان تتوفر على دراسة تاريخ الشعوب التي خرجت منه الى بقاع هذا المشرق ، وراحت تهذب العقول وتضفي عليها المعرفة والعلوم ، ثم كونت اخيراً دولاً وشعوباً لايزال العالم يعني بدراستها والوقوف على حياتها ومدينتها . . . خذ مثلاً جبل «صبْر» وهي هضبة نسجت حولها الاساطير المقدسة . . . . وهناك قصور «حمير»

التي تذكر بالعهود السالفة ، فأحد جوامعها الجبلية الذي يعلو صدعاً كان يستقبل تياراً مستمراً من الهواء يسميه الناس «نفحة الله» . . . وكانوا يرون ان هذا الجامع يقع بجانب الكهف الذي تحدث عنه القرآن الكريم في سورة اهل الكهف ، ويزعمون ان اهل الكهف قد انحدروا الى الاودية بعد ان ناموا في كهفهم ثلاثمئة عام من خلال ممرات طبيعية تحت الارض ماتزال موجودة ، ثم خرجوا كما تخرج الاشباح . . ان خرائب حمير مدعاة للاعجاب . فحمير سكنت اليمن منذ القدم ، ولكن شعب «عاد» كان قبلهم بكثير ، بل وقبل مملكة سبأ . . ان كل هذا جدير بالدراسة يابني .

صحيح ماتقوله ياأبي ، ولكني لاارى اي شبه بين الامس واليوم . . . اني اعشق الامس بكل مافيه ، ولكني لااؤمن بما نحن عليه اليوم . . . ألا ترى الى أين وصلنا . . . اننا نعيش حياة القبائل والطوائف والجاهلية . . . التدهور والتفكك والانحلال يكتنف حياتنا ، والظلم والفساد والتحكم يلقي بظله على مرافق مجتمعنا . . . امارات صغيرة ، وقلاع مستقلة ، وأجزاء منقسمة على نفسها تتحارب وتتنازع على السيادة . . . القوي يأكل الضعيف ، والسلطة موزعة بين امراء يسيطر عليهم الجهل والغرور . . . والوحدة والوئام بين اليمنيين تكاد تكون مفقودة . أما بغداد فقد اخذت تحكم بالاسم ولاتفعل شيئاً . . . فخلفاؤها لاسلطة لهم ولاشأن . . . انهم اسرى بين ايدي الاتراك والاكراد والديلم يتلاعبون بهم ، ويسيرونهم حسب مصالحهم واهواءهم .

ان ماتقوله هو عين الحقيقة يابني ، ولكن مالنا ولكل

هذا . . . ثم ماهو المطلوب منّا ونحن في مواقعنا هذه لانستطيع ان نبدي حراكاً ، او نقوم بعمل من الاعمال .

ولكن مجال العمل واسع ياابي ، ومن الجهل ، بل من الوهن ان نستسلم لليأس . . . . . علينا ان نعمل ، ونمضي الى الامام ، فلابد من بلوغ الآمال المنشودة . . . اني المح خلف الافق فجراً ضاحكاً ، وكم يوجب علينا ضميرنا ان نسعى لاستقبال هذا الفجر الندي الذي سيرخي ظلاله الوارفة على ارجاء ربوعنا اليمنية السعيدة .

الصبح يتنفس رويداً رويداً ، وجيوش الظلام الحالكة تتراجع خائفة امام انواره النديّة الرطبة ، وامتزجت اصوات البلابل والطيور بحفيف الاغصان . فارتفعت اصوات المؤذنين تدعو الى خير العمل ، واقامة صلوات الفجر ، والانقطاع الى عبادة الله الكريم . . . وراحت الاعراق ترعش في الافق نديّة عذبة ، واريج الورد يفوح فيعطر الفضاء الساجي ، ويلثم وجوه اصحاب القلوب المطمئنة الذين هرعوا الى المساجد لاداء الصلاة والابتهال في صمت وخشوع بعيدين عن عالم الفساد والآثام .

وهكذا لم ينقض بعد ذلك سوى وقت قصير حتى كان المعلم السيد «سليمان بن عامر الزواحي» ينطلق من منزله الريفي الراقد على كتف احد اودية جبال «حراز» باتجاه منزل صديقه القاضي «محمد الصليحي» الكائن في الجبل المقابل . . . فكان عليه ان يهبط الوادي السحيق ثم يتسلق الجبل ليصل الى حيث يريد . . . انه بالفعل طريق متعرج منقور في الصخور كسلم يصعب تسلقه . . .

فكان على سالكه ان يقفز من صخرة الى صخرة متجنباً مااستطاع الاصطدام بالاشواك والاشجار النابتة على جانبي الطريق دون الشعور بالتعب وحسبان الاخطار .

هكذا كانت قرى جبال حراز في ذلك العصر . . . وكم كان جميلاً ورائعاً اجتماع اهل قرية القاضي محمد على السور في تلك الصبيحة المشرقة يتحادثون ويحدقون الى بعيد ليتبينوا القادمين والذاهبين . . . . وبينا هم يمارسون هوايتهم المفضلة لمحوا من بعيد رجلاً يصعد الى قريتهم من ناحية الوادي، فعرفوه عندما اصبح على مقربة منهم . . . . انه المعلم سليمان الذي ماانقطع منذ اعوام عن زيارتهم وزيارة القاضي محمد في منزله الكائن داخل السور الغليظ المعقود من الحجارة الصماء على ارض صخرية خشنة ، وباب عريض يقود الى فسحة سماوية من الارض ظهر حول جهاتها الاربع ابواب بعض الغرف والقاعات الكبرى التي تبدو وكأنها منحوتة في الصخر الصلب .

مرحباً بأخي الكريم . . . لقد اطلت الغياب . . . مما حملني على التساؤل عن سبب غيابك . . . فعسى أن لاتكون هناك اسباباً قاهرة حجبتك عني ؟

كنت مشغولاً عنك بضيوف اعزاء وفدوا عليّ من الديار المصرية . . . ولاشيء غير هذا . . . أين علي ؟

عجيب أمر علي ياأخي سليمان . . . لقد سهر مع الكتب حتى ساعة متأخرة من الليل ، واني صرت اخشى على صحته من هذا الاجتهاد . . . انه يلتهم الكتب التهاماً ، ولا يهدأ ساعة . . . بل

لايتوقف ثانية .

اخذ الله بيده . . . في الحقيقة لااملك تعبيراً اعبر فيه عماً يتمتع به علي من مواهب وذكاء وبعد نظر ، فلقد اعطاه الله ذهناً متوقداً ومعرفة واسعة ، وتفكيراً عميقاً واسلوباً جديداً في النقاش والافصاح عن الافكار . . . ففي كل يوم اجتمع اليه يزداد اعجابي به ، ويشاركني هذا الاعجاب العديد من الشباب والشخصيات الحرازية ، حتى ان كل من عرفه من بلاد اليمن لايخفي اعجابه وتقديره . . . لهذا جئت راجياً منك افساح المجال امامه للعمل دون ان تجعل قيوداً على تصرفاته . . . ويجب ان لاتخاف عليه . . . فعلي بعد الآن ليس بحاجة الى وصاية احد .

انا مثلك ضد القيود التي تحد من النشاط والتطلعات . . . ولكني اريده ان يبتعد على قدر الامكان عماً يسمّى سياسة اليمن ، فاني اخشى عليه ان ينزلق في هذه السياسة المتقلبة الخرقاء التي كثيراً ماتفسد عقول الشباب والشيوخ ، وتحولهم الى دمى مسخرة وآلات صماّء مهمتها العبث بارجاء هذا الوطن ، وتخريب معالمه وحضارته .

دع عليّ وشأنه ياابا عبد الله ، ولاتشبهه بأحد ، واعلم ان لديه طاقة كبرى من العبقرية . . . واعتقد انه سيكون له شأن واي شأن . . . ولابد ان يسود ، وتنال اليمن على يديه الوحدة والمجد والازدهار .

* * *

كرّت الايام ، وتبعتها الاسابيع والشهور ثم الاعوام اخيراً . . . وعلي ينمو ويشب ويترعرع في ظل والد بار يحنو عليه ،

ومعلـم وهبـه كل حبـه وتقـديره ، وزوده بالعلـوم والآداب وكل مايتطلبه الشاب المؤهل لتسلم القيادات . . . ولـم يكن علي بالذي يرضى بما يتلقاه ، بل على العكس ابتدع لنفسه اسلوبـاً جديداً في الحياة ، فكان يطوف القرى والمدن ومنازل القبائـل للتعـرف على شبابها وعلى رجالاتها ، وكثـيراً مااستمـع اليهـم قبـل ان يحدثهـم الاحاديث التي لم يكونوا قد سمعوها من قبل . . . انها احـاديث الثورة على المجتمع ، وعلى الحكم القائم ، وعلى الظلـم والتسلـط والاستبـداد والتجزئـة . . . لقـد كان ينفـخ فيهـم روح الاحـرار الاعزاء الذين لايحنون رؤسهم إلا لله . . . أما الشباب فقـد كان اعجابهم لاحدودله بهذاالفتى العربي الاصيل الذي انطلق يتحدث بلغة عربية صحيحة ، وبصوت عذب يؤثر في القلوب ، ويجتذب الاعداء قبل الاصدقاء بقوة حجته وروعة بيانه . . . وبعد ان يؤدي مهمته يعود الى منزل عمه «شهاب الصليحي» وكثيراً مايجده غائباً ، فيجلس الى ابنة عمه «اسماء» يحادثها وتحادثه بما لايخرج عن حدود العادات العربية والآداب . . . وعندما يكون وحيداً يخاطب نفسه قائلاً :

لك الله ياعلي . . . لاادري اي ريح عاصف حملك على متنه ورمـاك في مرابـع «اسماء» . . بل لاادري فيما اذا كان سيتحطـم حبك ، ويجرح قلبك ويصيبك السهم فيمـزق منـك الاحشـاء ؟ . . . . كلاً ايتها السماء فليس هناك من قوة تستـطيع ان توردنـي مورد الهلاك . . . «فأسماء» ستبقى لي مهما عصفت العـواصف ، وثارت الانواء .

لقد كانت «اسماء» كما وصفوها : اجمل وجه في اليمن في عصرها ، فإلى جانب الجمال الادب والحشمة والمعرفة ، وكل هذا كان حديث الخاص والعام في ربوع جبال حراز ، مما جعل والدتها تردد في كل مرة :

لا يمكن ان ازوّج «اسماء» إلا الملك من ملوك همدان ، او لسلطان من سلاطين بني الكرندي . . . . وهذه الكلمات لم يقم علي لها اي وزن ، وظلّ يزورها ويتحدث اليها حتى اصبح لا يستطيع ان يفارقها . . . ويعود اخيراً الى منزله فتسأله والدته عن سر غيابه . . . فيجيبها بأنه كان في منزل عمه شهاب فلا تقول شيئاً ، وعندما تكرر ذلك . . جاءت الى زوجها القاضي محمد وقالت :

يا ابا عبد الله . . . اعتقد انك لا ترفض لي طلباً . . . ولمّا كنت على ثقة من ذلك جئت ارجوك ان تفسح لي المجال لكي افرح بعلي قبل موتي .

تقصدين الزواج ؟

اجل . . .

ولكن من هي الفتاة التي اعجبتَك في «حراز» . . هاتي اذكريها لي لكي اذهب بنفسي واطلبها من والدها ، ولا يغامرني شك بان رجلا في اليمن يأنف ان يكون علي زوجا لابنته .

علمت يا ابا عبد الله ان علي يكثر من الذهاب الى بيت عمه «شهاب» وليس بعيدا ان تكون «اسماء» قد اسرته .

«أسماء . . . انها فتاة فائقة الجمال ومهذبة . . . ولكن من يكفل لنا قبول والدتها ، وقد سمعت انها تعدها للزواج من

الملوك . . . لهذا استطلب مهرا كبيراً . . . ونحن كما ترين لاقدرة لنا على دفع اية نفقات .

اذا حصل مثل هذا ، فيكون لنا اتجاه اخر

في تلك اللحظات عاد علي الى المنزل فناداه والده قائلا :

تعال ياعلي . . والدتك بحاجة اليك

تكلمي ياامه . . فكلي اذان

قلت لوالدك : اني اريد ان افرح بكَ قبل موتي

معنى هذا الزواج

اجل ياابني

ولكن ألا ترين بان الوقت لا يزال مبكراً

كلا . . واريد الان ان تذكر لي اسم الفتاة التي تحبها ؟

اذا كان لابد من ذلك . . فابنة عمي «اسماء بنت شهاب» هي التي احبها قلبي وركن اليها . . . ولكني اخشى ان تشتط والدتها بالطلب . . وعندئذٍ لا ادري ماذا سأفعل ؟

وهكذا لم يمض سوى ساعات معدودة حتى كان «القاضي محمد» يقرع باب منزل ابن عمه «شهاب» وكان وحيداً . . وبعد ان اخذ مكانه واستراح قليلا قال له :

جئت اليك في امر هام ياابن العم ، وقبل ان اعرضه عليكَ . . اطلب رأيك في ابني «علي» ؟

«علي» . . . انه موضع اعجاب وتقدير كافة رجالات بلاد خراز . . . وانا ايضا من الذين احبوه وقدروه واعجبوا به وتوسموا كل خير فيه .

ان «علي» هذا الـذي احببتـه أرسلنـي الآن لطلـب يد «اسماء» . . . فماذا تقول ؟

من جهتي لامانع . . . ولكن لابـد من اخـذ رأي «اسماء» ووالدتها . . ونادامن . . . وبعد ان دخلن قال :

ابن عمي القاضي «محمد الصليحي» جاء يطلب يد «اسماء» لابنه «علي» . . . فاطرقت «اسماء» خجلا اما والدتها فأجابت :

لااعتقد ان في قبيلة «الاصلوح»، او في بلاد «حـراز» من يستطيع ان يدفع مهـر «اسماء» . . . اريد لها ثلاثين الف دينـار مقدما ، ومثلهم مؤخرا بالاضافـة الى النفقـات الاخـرى المقـررة والمعترف عليه لدى شيوخ وامراء قبائل اليمن . . . فاذا كان «علي» له القدرة فليتقدم والا فليكف عن هذا الطلب .

نهض القاضي محمد دون ان يرد عليها بكلمـة ، وعـاد الى منزله حزينا ، وفي طريقه هجمت عليه جيوش الهواجس والافكار فجعلته لايرى امامه الا الصور الجاهمة . . . كان يفكر بالعقبات والعراقيل التي تتطلب حلا، ولكنه لم يستطـع الاهتـداء الى هذا الحل . . . واخـيرا : وصـل الى منزلـه وقص على «علي» ووالدتـه ماسمعه .

. . . . . .

الطريق من «حراز» الى «زبيد» طويل وشاق وساحـر . . . الاعشاب الخضراء على جوانبه ترتعش امـام النسمات ، والجـداول الشادية المنحدرة من قمم الجبال ترسـل انفاسهـا العذبـة فترددهـا السفوح والوهاد ، اما الازهار ففي كل مكان تبدو وكأنها لاتضـن

بعطرها وشذاها حتى على العابرين والمسافرين، وهكذا الاشجار الراقدة على القمم وفي البطون والسفوح. . . هذا قبل ان يصل المرء الى منطقة الصحراء ذات الرهبة حيث يرتعش فيها الهواء الحار ، وتتصاعد اعمدة الرمال المتنقلة والمتفرعة في تموجاتها التي تقلق المطايا وتجعلها عمياء ضالة لاتدري الى اين تسير . . . وتطل «زُبيد» من بعيد بعد مسيرة شاقة استغرقت اياما وليالي . . . انها بليدة يغمرها الرماد وتنبعث منها روائح العطر والتوابل ، وقبابها الحجرية ومآذنها ذات البياض الباهر تبدو وكأنها اطلالا في وسط صحراء يغمرها السراب ، اما اسواقها فكانت تعبرها القوافل الذاهبة والراجعة وبعضها فضل الاستراحة بينما البعض الآخر قرر اكمال الرحلة . . وخرج الناس من منازلهم الى الاسواق لشراء الحاجات والرجوع قبل حلول حر الهاجرة .

ويشاء حسن الطالع في امسية ذاك النهاران يخرج «فرج السحرتي» من منزله لقضاء بعض الحاجات ، واذا امامه شاب غريب وسيم اشقر الشعر فارع الطول ليس في اليمن من يماثله جمالا وقدا . . فاستغرب وجوده امام منزله وحيدا في تلك الساعة . . . فسأله من تكون وما هي حاجتك . . .؟ فأجابه :

انني عابر سبيل رمتني الاقدار في هذه الارض الطيبة . . وغرضي قضاء ليلتي هنا . . والرحيل في الصباح .

فقال له :

وهل تعرفني . . . او هل ارسلَك احد اليَّ ؟

كلا لااعرف احدا في هذه البلدة كما قلت لك ، ولاغرض لي

فيها ، وعندما قصدتها توخيت ان احل ضيفا على احد الاعراب دون تحديد .

مرحبا بالضيف الكريم الذي ساقته الاقدار اليّ . . انك ضيف «فرج السحرتي» ولاشك سمعت باسم الرجل الذي وقف حياته على خدمة الناس . . . اجل انت ضيفي هذه الليلة ، وغدا لك الخيار بالذهاب او البقاء . . . تفضل . . . واخذه بيده وادخله الى الغرفة المعدة لاستقبال الضيوف . . . وبعد العشاء سهرا معا . . . فأقسم عليه ان يخبره عن غرضه وعن سبب قدومه الى الديار فقال :

ان لي عماً له ابنة قليلة النظير في الجمال ، ومعدومة المثال في العقل والكمال ، وأحبها وتحبني ، وقد طلبتها منه ، فاشتطت امها في طلب المهر ، وطمعت ان لاتزوجها الا لملك او امير . . . وهذا ما جعلني اهيم على وجهي . . . للتفريج عن همومي . . . ومن جهة ثانية قررت الذهاب الى امراء «بني معن» بعدن ، وسأطلب اليهم ان يتبرعوا لي بالمبلغ المطلوب ، على شرط ان اعيده اليهم فيما بعد .

ولكن الملوك والامراء لايدفعون الاموال الا في سبيل مصالحهم ، ولا اعتقد ان لهم مصلحة من وراء ذلك . . . على كل حال . . . طب نفساً ، وقرّ عيناً فأنا لا ادعك تذهب من هنا الا والمهر معك . . . لقد توسمت فيكَ الخير ، وقرأت في وجهكَ البشائر بانك ستملك اليمن بأسره ، وسيكون لك دولة . ولكن لي عليك عهد الله وميثاقه ان ترد لي المبلغ متى تحققت امالك . . . وان يبقى عطائي اليك سرا من الاسرار . . . انني يابني المح غيوما دكناء

في افقنا اليمني ، وستعقبها امطار وسيول وعواصف ورعود . . .
وبعدها ستتكشف دنيانا عن صحو وضياء يغمرنا مدة طويلة من
الزمن . . . وعاد «علي» في ثاني يوم الى حراز . . . ودفع ماطلب
منه ، وجهز العروس بجهاز فاق كل اجهزة بنات الملوك[1] .

صفاء يمد رواقه فوق قرية «مراْخة» الحرازة . . . امتداداً تجلى
فيه السحر والفتون ، هدوء مشبع بالجمال ، والرواء رفٌ على
جوانبها رفيف الاحلام في جفون العذارى ، وجفون مثقلة
بالاحلام والأمل اخذ يداعبها المستقبل المشرق ، وافئدة منطوية على
الحب والسلام داهمها الرجاء من كل جانب .

في غمرة هذا الجمال الطبيعي المنبثق من خلال الظلام . . .
كان «علي الصليحي» يعود مع الظلام الى قريته وهو خافت
الصوت ، وكأنه يحاول ان يلمس الافئدة باصابع مثلوجة ، ويهمس
في اذان القوم . . . الحان الامل والبشائر . . .

وانبثق الفجر ، وبدت جبال «حراز» اليمنية الشماء امامه في
شكلها الرهيب كسلسلة محكمة الوصل متينة العقد انيقة الترتيب

---

(١) هذه القصة ايدها المؤرخ «عُمارة اليمني» وذكرها «الازدي» في كتابه
«الدول المنقطعة» كما يلي :

وكانت «اسماء بنت شهاب» من اعيان النساء . . . وكان «علي
الصليحي» يثق بها ثقة عمياء لكمالها ، ويوكل اليها امر تدبير شؤون الدولة ،
ولم يخالفها بل كان يجلها اجلالاً عظيما ، وكانت اذا حضرت مجلسا لاتستر
وجهها عن الحاضرين . . . وفوق هذا كانت من الكرم والسؤدد بحيث تمنح
الجوائز السنية الجزيلة للشعراء ، والصلات الواسعة في سبيل الخير .

لا يستطيع البصر ان يصل الى اخر قممها ولا ان يبلغ عمق اوديتها . فالدروب الضيقة التي تتخللها اتخذها الرعاة طرقا لهم كيلا يضلوا وسط الغابات الكثيفة التي رصعتها ، والصخور الجبارة التي حفرت فيها الطبيعة كهوفا ومغاور ، وكست ابوابها بالاشواك كان من الخطر المرور امامها ، او تخطي دروبها ، او السير على مقربة منها . . . ولم يعق كل هذا «علي» من الوصول الى منزله ، فوجد والده واخوته بانتظاره على احر من الجمر . . . وبعد مشاورات واتصالات استغرقت ما يقرب من الاسبوع . . . اعلن موعد العرس . فقرعت الطبول ، وتعالت الزغردات ، وعَمت كل مكان الزينات ، وأقبلت الوفود من مختلف الجهات لمشاركة القاضي الفاضل واسرته العريقة افراحها ، وهم يحملون الهدايا للشاب الذي احبوه ، وتألفت الحلقات من الشباب والصبايا وهم في ثيابهم الحريرية المزركشة يرسلون الاغاني ، ووقف الأب واولاده عبد الله وابراهيم وعلي يستقبلون الوفود ببشاشتهم ولطفهم ، وينزلون على الرحب والسعة ، وينحرون لهم الذبائح بينما الطبول تقرع والاهازيج تتصاعد فترددها الجبال والوهاد .

سبعة ايام بلياليها . . . وبلاد حراز لم تهدأ . . . كانت ترتدي ابهى الحلل وتتوشح اجمل اللآلىء وكأنها هي العروس ، وكم كان منظرها اخاذا وهي جاثمة في سفوح الجبل الجبار . . . وبالفعل برهن اهالي حراز والقبائل المحيطة به عن حبهم وتقديرهم لهذا البيت العربي الكريم فقدموا كل ما امكنهم من واجب الولاء والاحترام .

وبعد ان استقر «علي» في منزل الزوجية الجديد . . . اخذ يتطلع الى تحقيق ما رسمه وخطط له ، فعاود التجوال من جديد في القرى ومرابض القبائل ، وتابع السير على طريق القوافل الذاهبة الى الديار المقدسة ، وخلال ذلك كان يحدث الناس عن خططه المقبلة ، وعن مشاريعه التي سيعمل على تحقيقها . . . ويعود بعد ذلك الى منزل معلمه «سليمان» ليحمل اليه نبأ انتصاره في هذا المجال ، وليستمع الى نصائحه .

لقد بايعني يامولاي مئة رجل من قبيلة «همدان» وعاهدوني على الطاعة والموت ، وأقسموا بان كل واحد منهم جندي وعلى استعداد ليقدم نفسه للوطن عندما تأزف الساعة الرهيبة . . . وهؤلاء كما تعلم في عزة ومنعة من قبيلتهم . . . انهم من همدان ، وهمدان هي القبيلة اليمنية الاكثر قوة وعزة . . . انهم ينتظرون الآن السلاح والاعتدة ليكونوا نواة الجيش الأول . . . ولكن من اين لي بالمال ؟ . . . اني خائف من ان يقف حائلا بيني وبين ما اصبو اليه .

لاتخف يابني علي . فالمال متيسر . . . وما دامت الامور وصلت الى هذا الحد فان صناديقي منذ الآن بتصرفك تأخذ منها ماتشاء دون اي قيد او شرط ، ولاشك تعلم انها طافحة بالنقود والذهب . . . ولكن لابد لي من توجيه بعض النصائح اليك ، وانت تخوض المعركة الاولى :

عليك ان تراعي باتصالاتك واستقطاباتك جانب العامة . . . فهم السواد الاعظم في كل مجتمع . . . لهذا فان اية

ثورة او دعوة لايمكن ان يقوم لها امر اوشأن الا اذا حسب قادتها للعامة حسابا ، وتقرب اليهم بما يرضيهم . فمنهم يتألف الجيش ، والجيش هو دعائم الدولة ، ولايمكن ان يثبت بناء دون دعائم .

وعليك ان تعالج الامور بصبر وتؤدة ، وان لاتتسرع ، وان تعامل جنودك باللطف ، فلا تجعل لهم مجالا لينظروا اليك نظرة الكبر والغطرسة . . . عاملهم باحسان ، ولابأس ان تساويهم بنفسك . . . . انا واثق ياعلي من النصر ، ومن المستقبل ، وسأموت قرير العين بعد ان ارى النبت الذكي المتأرج ، والصوت المدوي ينبعث من هذه الجبال الشماء ليمتد ويمتد حتى يشمل كل هذه الربوع .

فالفجر قد اخذ الآن في البزوغ ، وسيصل ظلاله الى كل انحاء اليمن السعيدة ، وستبصر في تورده ولمعانه زحفا جديدا الى ديار فينانه ، وامصار لايغشاها الظلام . . . ان صاحب هذا الزحف سيكون حرا واتباعه احرارا كهذا النسيم المنسجم العذب . . . وسيكون له راية خفاقة وظل وارف ، وموكب فخم من الجلال والعزة . وسيمشي بخطى جبارة فوق رؤوس العصور .

خذ من الاموال ماشئت ياعلي . . . وليكن الله بعونك .

. . . . . .

تلال جبارة ترنو بابصارها الى الاعالي غير هيابة ولاوجلة . . . وجبال عالية تشمخ برأسها الى السماء ، وهي تحاول ان تطبع على خدها قبلاتها ونفحاتها . . . وذروات شجراء وقفت

تطل بوجهها الضاحك على الاودية والسهول . . . تعاهدها السهر على امنها وحراستها من الفاتحين والمغيرين .

انها جبال «حراز» اليمنية التي عاصرت الدهور وشهدت تقلبات الازمان ، ومرت عليها صروف الحياة باشكالها العجيبة وألوانها المختلفة . . . فكانت همزة الوصل بين بلدان بعيدة وقريبة ، وحاجزا منيعاً في وجه الغزاة ، وقبراً مظلما أعد لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على الامصار واستعمار الشعوب .

وظهرت «مناخة» الفاتنة ، وكانت تأخذ طريقها لليقظة من رقاد استحوذ عليها طيلة ايام الشتاء ، وعندما جاء الربيع ارتدت حلة الشباب. فرقصت براعمها، وتغنّت طيورها ، وعطلت انداءها ، وهبت نسماتها ، واستعاضت عن ثوبها القديم بثوب جديد يذخر بكل معاني التطور التي تكفل السمو والعزة والجاه .

وتشاء الايام ، ومتطلبات الاحوال ان يجلس «علي» الى رفيقه المخلص وقائد جيشه البارع «عامر بن سليمان» فيسأله وهو يعد العدة ويتأهب للانطلاق :

قل لي ياعامر . . . مارأيك في حالتنا الحاضرة ؟

اري ان نعمل بسرعة على احتلال حصن «مسّار» . . . فهذا الموقع الحربي اذا ماتمّ لنا احتلاله ملكنا اليمن شماله وجنوبه ، شرقه وغربه . . . اني المح استجابة لثورتنا لدى الكثير من القبائل ، وقبولاً طيباً لدى الشباب خاصة ، ولكني في الوقت نفسه اشم رائحة المعارضة التي تنكر عليك مثل هذا الزحف . . . لهذا اعتقد ان احتلال هذا الموقع الحربي يضع الجميع امام الامر الواقع

ويجعلنا في موضع القوة . . . وبعد ان يتم لنا ذلك . . . سندرس الامر من كل جوانبه .

حسناً . . . هذا مافكر به . . . قلْ للجند ان يتأهبوا . . . ولننطلق في هذه الليلة . . . وهكذا سار جيش «علي الصليحي» القليل العدد باتجاه حصن «مسّار» على هدى البدر الفاتن المتألق في السماء الصافية . . . فكانوا كأشباح لاتكاد السرعة البالغة تتيح لاقدامهم لمس التراب . . . انهم يمشون على الارض ولهم مثل صوت اللجة في بحر متلاطم ، وينتقلون كأنهم كثيب دفعته الرياح امامهم عند هبوب الاعصار . . . واخيراً :

تسلقوا الجبل ، واخذوا في الصعود وكل واحد منهم انطوى على الرجاء ، وأحسّ بيد الامل تطرق باب قلبه ، فليس ثمة سوى آمال وآمال . . . فأينما وجهوا عيونهم طالعتهم الجبال والاودية والسفوح صامتة خرساء لاتكشف لهم عن سر القضية التي ركبوا المشقة في سبيل ادراكها واستجلاء غوامضها . . . ولكنهم كانوا عندما يحولون ابصارهم نحو «علي» ينسون كل شيء ، وتهفو قلوبهم اليه . . . فهو مثلهم الاعلى ، ومنقذهم من براثن الجهل والانحطاط والطغيان والسائر بهم الى السبيل القويم ، والحياة الافضل .

أما «علي» فقد وصل الى حصن «مسّار» بحيطة وحذر ، ولم ينتظر طويلاً بل شرع باقامة المخيمات وتعمير الحصن ، ثم اخذ يعد العدة للانطلاق الى اماكن اخرى ، وعندما شاع الخبر انضمّ اليه خلق كثير ، كما تدفق عليه السلاح والعتاد من «سليمان بن عامر»

وهمذان . . . وبالرغم من كل هذا فإن أكثر القبائل المحيطة بجبل «مسّار» استنكروا ما اقدم عليه «علي الصليحي» . . . . فجمعوا جموعهم ، ودقوا طبول الحرب ، وأثاروا حماس القبائل الاخرى ، وذكروهم بالاخطار الناجمة من هذه التحركات . . . وفي نهاية المطاف تقدموا لقتاله وكانت قواتهم تتراوح بين الخمسة عشر والعشرين الفاً ، وعند وصولهم طوقوا الجبل وانذروا «علي» بالتسليم . . . ولمّا لم يجد لديه من القوى ما يكفل خوض الغمار . . . بادر الى استعمال الحيلة . فتنكّب سلاحه ونزل اليهم قائلاً :

ايها الرجال . . . ياسادة العرب . . . يجب ان تعلموا بأني لم اقدم على هذا الامر إلالكي احرس لكم هذا الموقع . . . فهناك قوة خارجية تهدد باحتلاله والتحكم بنا . . . . والآن اقول لكم :

اذا اردتم نزلنا وتركناه . . . وان شئتم كنا له الحرّاس الامناء . . . فنحن لسنا غرباء ومن حقنا الدفاع عن الاوطان . . . فاقتنع الرجال ، وفوضوا اليه الامر . . . ثم انصرفوا .

بعد هذه الانتصارات في «مسّار» ، وبعد ان تمّ تأليف الجيش الصليحي المقرر . . . اذاع «علي» بياناً على اهل «حراز» جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

ياأهل حراز . . .

الهمكم الله الرشد ، وجعل الخير لكم الهدف والقصد . . . اعلموا : انني لم اطلع الى حصن «مسار» متجبراً باغياً ، ولا متكبراً

على العباد عابثاً ، ولا اطلب الدنيا واحكامها أو إمتلاك نماءها وطعامها ، لاني لي بحمد الله ورعاً يحجزني عما تطمع اليه النفوس .

اعلموا : انني بكم رؤوف ، وعليكم عطوف . فالله فرض عليّ رعايتكم وحياطتكم ، والزمني عشرتكم وقرابتكم .

سآخذ لذي الحق حقه ، ولااظلم سابقاً سبقه ، وأنصف المظلوم ، واقمع الظالم الغشوم ، وأبث فيكم العدل ، وأشملكم بالفضل .

فاستديموا ذلك بالشكر ، ولاتصغوا الى قول اهل الكفر . فيحملوكم على البغي والعدوان والخلاف والعصيان ، والكفر بالاحسان .

ان بياني هذا حجة عليكم ... ومعذرة اليكم ... والسلام .

«علي الصليحي»

وهن البدر ، وراحت انواره تتبدد رويداً رويداً امام طلائع الفجر التي اخذت تنتشر في الافق من ناحية المشرق وكأنها مروحة اطرافها من اللجين وقاعدتها من الذهب النضار ، وبرز جبل «مسّار» شامخاً رابضاً ، وتحته السهول والوهاد والتلال ... أمّا البحر فكان بعيداً وهكذا «وادي برور» ، ومنطقة السهول التي تقع مابين الهضبات الممتدة الى «حجيلة» ، والطريق الرئيسي العام الذي يصل صنعاء بالحديدة .

واصبح نواة جيشه من «بني يام» ، وهوزان ، وحمير ،

لقد كان النسيم يهب رخاءً في ذلك الصباح ، وعبير الزنابق ورائحة الازهار يحملها النسيم الى كلّ مكان . . . وكل شيء يوحي بالأمل ويعزز الرجاء . . . وفي تلك اللحظات المبكرة كان «علي الصلحي» غارقاً في تأملاته ، وهو مأخوذ بجمال الطبيعة ، وكانت روحه هائمة تحاول اختراق الحجب ، وافكاره ايضاً تنتقل بسرعة من مكان الى اخر دون ان نستطيع العثور على ما يهدي العقل او ينير السبيل . . . وانه كذلك اذ يدخل عليه «عامر بن سليمان» فيسلّم ويجلس . .

عم صباحاً ياعامر . . . ماذا حولك ؟

لاجديد عنـدي اليوم . . . وكل شيء على غاية مايرام . . . ان قواتنا تزداد يوماً بعد يوم ، ورجالنا يتدربون على اعمال الفروسية والرماية والقتال . . . وكلنا ينتظر الاشارة بالزحف .

اسمع ياعامر . . . سأذهب اليوم الى «مناخة» لرؤية الأهل بعد هذا الغياب الطويل . . . وسأترك لك القيادة العامة . . . فكن كما عهدتك ، ولاتنسى ان ترسل لي رسولاً اذا حدث مايستدعي حضوري .

سأكون عند حسن ظنك .

وهكذا عاد علي الى قريتـه بعـد غياب طويل ، وهـو اشـد مايكون شوقاً الى والده واخوته وزوجته «اسماء» ، وقد يكون شوقه لمعلمه «سليمان بن عامر» يفوق ذلك باضعاف .

اي «اسماء» بماذا تفكرين الآن . . . الـم يزعجك غيابي الطويل ؟

كلاً لم يزعجني غيابك ياعلي . . . لانـي على يقـين بأنـك

تخوض معارك الشرف ، وتؤدي واجبك نحو امتك ووطنك . . .
ان حبنا الفتي الذي ولد في هذه الديار ياعلي وجد غذاءه في ربوعها المطمئنة . . . فهذا الحب قدر له ان يولد وينمو في هذه الجبال الشمأء التي تظلها سماءنا الصافية . . . . يجب ان تعلم ياعلي بأن «اسماء» ستبقى لك رغم الحروب ، وستشاركك الافراح والاحزان ، وهيهات ان يتسرب الى قلبها السأم . . . فاطرد التشاؤم ، وامض في سبيلك ولاتخف . . . فالحياة تبدو في ناظري كهذه الليلة القمراء . . . غداً ستذهب الى ساحات الشرف فليكن النصر حليفك ، وانا لن انساك في صلاتي ودعائي . . . والله الكريم لن يبخل عليّ بردك ظافراً وعلى رأسك اكليل الغار .

اي اسماء . . . . رأيت فتاة صغيرة تمر امام الغرفة اليوم ، وقد اعجبت برقتها ونعومتها . . . انها جميلة كما ارى . . . وبيضاء اللون ، ومشربة بحمرة . . . وهي مديدة القامة معتدلة البدن كاملة الاوصاف . . . ممن تكون هذه الفتاة ؟

انها «أروى» بنت المرحوم «أحمد الصليحي» الرجل الذي كنت قد ارسلته بمهمة فمات في ظروف غامضة . . . مسكينة لقد تزوجت امها «الرداح بنت الفارع» «عامر بن سليمان» وذلك بعد وفاة زوجها . . . فأصبحت الفتاة وحيدة . . . وعندما رأيتها لأول مرة اشفقت عليها وخفت من بقاءها وحيدة ، فجئت بها الى منزلنا وقصدي تربيتها وتعليمها .

ما فعلت إلا مايوجبه عليك الواجب . . . نادها فاني اريد التعرف عليها . . . وجاءت «أروى» فسلمت بحياء ثم عادت

ادراجها . . . فقال علي :

اني توسمت فيها كل الخير ، وقرأت على وجهها آيات النبل والشرف . . . فاكرميها واحفظيها «فهي والله كافلة ذرارينا ، وحافظة هذا الامر على من بقي منّا» .

لم تطل اقامة علي في القرية . . . فان نائبه عامر ارسل اليه يخبره بأن : «جعفر بن العباس الشاوري» صاحب «مغارب اليمن» الاعلى يقوم الآن بهجوم على «مسّار» بقصد الاستيلاء عليه ، وهو يقود جيشاً كثيفاً .

وصل علي الى جبل «مسّار» واطلع على الاوضاع الحربية ، ومن فراط حماسه لم يشعر إلاّ وهو وجهاً الى وجه امام عدو جبّار يفوقه عدة وعدداً . . . فاتكل على الله وخاض المعركة الاولى . . . . . ومن حسن طالعه انه منذ الجولة الاولى سيطر جيشه على الساحة ، واخذت طلائعه تتقدم والعدو يتراجع . . . واخيراً :

التقى علي بجعفر في الميدان فتصدى له ، وبعد جولة او جولتين تمكن من اقتلاعه وقتله ، وعندئذ ولّت بقايا جيوشه هاربة تندب قائدها وقتلاها .

* * *

جبل «مسّار» وقبله جبال «حراز» يستقبلون الآن عهداً جديداً . . . فكل مافيها وحولها قد تغيرّ بسرعة . . . من قبائلها الى شبابها الى رجالاتها وأصحاب الشأن فيها . . . . . فلا غرو بعد ذلك اذا ماارتدت حلة ربيعية قشيبة ، وغردت بلابلها ، وتثنّت اغصنها ، وشدت جداولها وشمخت برأسها الى العلاء . . . منها

ان أمة جديدة قد بعثت وجاءت لتأخذ مكانها على ذرواتها وفي جعبتها منهاج للحياة اقسمت على تنفيذه عبر فلذات أكبادها الذين اعدتهم ليكونوا سياجاً يقف في وجه كل طامع ومستعمر ، وليزحفوا منها نحو الربوع الاخرى حاملين بأيديهم الوية السلام والحرية والمساواة .

ان كل مافيها يبعث على الاطمئنان ، ويبشر بمستقبل زاهر . . . هاهو افقها الريان يتراءى من بعيد حاملاً الخصب والعفاء والعزة والخلود . . . هنا راعٍ يقود مواشيه الى الشعاب ويجلس على صخرة عالية يحدق في البعيد . . . البعيد . . . وترسل قيثارته الحان الامل والحب . . . انه يبدو حريصاً على قطيعه لايغفل عنه ، ولايحوله النغم الساحر عن الواجب . . . لقد كان بالامس يحذّر من الوحوش الكاسرة والنسور الجائعة . أمّا اليوم فالأمن سائد ، والدروب والقرى استسلم اهلها للراحة بعد التعب يحملون الاحلام الجميلة التي تتمثل فيها حياتهم البريئة . فالعيش اصبح في ربوعهم طيّباً ، وستكتمل عيونهم غداً برؤية فجر ضاحك يمدّ رواق الحرية والنور في كل مكان ، وسيحمل لواءه قائد فذ مازال يقترب من ذروة المجد ، ويطل من عالم مفعم بالحب . . . رجل عظيم بعيد النظر نذر نفسه للنضال في سبيل امته وبلاده ، وعمل على توحيدهم في دولة قوية منيعة الجانب تصمد في وجه الغزاة ، وترد خطر الاستعمار . . . وها ان أنوار هذا الفجر قد بدأت تنبثق من حصن «مسّار» لتعم الحصون الاخرى وكل ربوع اليمن السعيدة .

عاد «علي الصليحي» الى مقره . . . وهو يحمد الله على ما حققه من نصر على عدو يفوقه عدة وعدداً ، ولم يكد يخلد الى الراحة والسكون حتى جاء من يخبره بأن «جعفر بن علي العياني» صاحب «صعدة» قد هاجم حصن «الأفروج» واستولى عليه ، وانه في طريقه للهجوم على جبل «مسّار» . . . فأمر علي قائده «عامر بن سليمان» بأن يعد العدة ويذهب لملاقاته . فزحف الى حصن «الأفروج» . . . وهناك التقى بالعياني وبدأ القتال الذي استمر عدة ايام تمكن عامر في نهايتها من الاستيلاء على الحصن ، وهزيمة العياني الذي فرّ مع جنوده الذين سلموا من القتل . . . وكان صاحب الحصن هو الذي خرج على طاعة الصليحي وتآمر عليه ، وخابر «العياني» وسهّل له الاستيلاء على الحصن .

بعد هذا الانتصار الحاسم . . . عاد «عامر» الى قاعدته في حصن «مسّار»ولكنه ماكاد يستقر حتى اعلن«ابن جهور»ثورته على «الصليحيين» من حصن «لهَاب» بعد ان ايدته بعض القبائل ، فانطلق يقتل وينهب ويعيث فساداً حتى انه اسر القاضي «لملك بن مالك» وهو من القضاة المقربين من «علي الصليحي» . . . ثم تابع سيره الى نواحٍ اخرى يقتل وينهب وبعد ذلك يعود الى حصن «لهَاب» للاعتصام فيه . . . فجند علي قوة من جيشه جعل قوامها «بني قليد وهوزان والهجري» و«عقد لعامر بن سليمان» على قيادتها . . . ثم جهّز قوة ثانية من «الحجازيين» بقيادة «أحمد بن المظفر» فجاء الى قمة جبل «شبام» وأقام فيه ، كما جاء عامر الى جبل «بيت عناد» وأقام فيه ايضاً ، وبعد استراحة قصيرة شنّا هجومهما

على «ابن جهور» من اتجاهين ، ودارت المعارك العنيفة بين الفريقين وفي نهاية المطاف ضيقوا عليه الحصار ثم فكوا الاسرى ومنهم القاضي «ملك» . . . ولكن كل هذا لم يوقف «بن جهور» عند حده ، فظلّ يقاوم بعناد ، ثم لجأ اخيراً الى حصن «زبّار» . . . فلحقا به ومازالا يضيقان عليه الحصار حتى سقط الحصن بأيديهم ، وعندئذٍ لم ير «ابن جهور» بد من تسليم نفسه . . . فحمل الى «مسّار» وهناك رحّب به «علي الصليحي» وقربّه وابقاه في ضيافته عدة ايام ثم احسن اليه .

ان الخوف والهلع من هذه الانتصارات السريعة الحاسمة بدأ يتفاعل في نفوس الناس والقبائل . . . فيحسبون الحسابات للمستقبل . . . وجاء تسامح علي مع اعدائه ليعطي الدليل على النبل والعراقة وحب العفو عند المقدرة . . . لقد كان الناس يتوقعون ان يأمر الصليحي بقتل ابن جهور الذي عاث فساداً ، واعتقل القضاة ، وأقلق الراحة العامة ، ووضع العراقيل امام الاصلاح حتى انه استمات في سبيل النصر . . . فضلاً عن تحريض الناقمين والحاقدين .

* * *

استفاق «علي الصليحي» من رقاده على اصوات المؤذنين . فتفتحت نفسه المغلقة امام هذه الدعوة الحارة ترسلها قلوب مؤمنة بريئة فطرت على العبادة ، والانقطاع الى الصلاة والابتهال . فغادر فراشه مسرعاً الى خيمة الاجتماع ، وهو مأخوذ بروعة الأذان . . . وكان الفجر الضاحك يشق طريقه في الظلام ، ويريق جماله على السفوح الخضر ، وعلى القمم المجللة بالضباب ، والمبللة بندى

الاسحار . . . وانتشر عبير الورد في كل ربض وناحية ، وانكشفت الضواحي الفينانة التي ازهر فيهـا العشـب ، واشجـار السنـديان والآس .

وسمـع «علي» تغـريد البلابـل وحفيف الغصـون وتـراتيل الجـداول . . . وأحسّ بالنسيم العليل يداعـب جبينـه فتنفسّ الصعداء ، وطلب من حارسه ان يعد له قهوة الصباح . . . ولـم تلبث ان اقبلت الوفود من مختلف الجهات تعرض نفسها وخدماتها واستعدادهـا للمـوت . . . فكان يستقبلهـا ببشاشتـه المعهـودة ويتحدث اليها حديث القائد الواثـق من نفسـه والمؤ مـن بقضيتـه ووطنه وامته .

ولـم تكن قبائـل جبـال «حـرازِ» في ذلك اليوم اقـل فرحـاً واستبشاراً من المقاتلين . . . فانهم قد زحفوا الى حصـن «مسّار» وهم يعزفون انغامهم ، وينشدون اناشيدهم ، وقرعـت الطبـول علامة الحـرب ، ورددت الاودية صدى صهيل الخيول الى ماوراء التلال والوهاد . . . الخيول التي خرجت من مرابضها وهي تختال عجباً ، وكانت بشعرها اللماّع ، واعجازها المضبورة تكنس الارض بذيلها الطويل ، وتلتمع عيونها تحفزاً للنزال ، وتلوك لجمها الملطخة بالزبـد . . . وامتطـى «علي» فرسـه الابيض المطهّـم ، وقبـل ان ينطلق ، ويبدأ بالزحف وقف خطيباً وخاطب جيشه قائلاً :

ايها الابناء . . . ايها الفرسان المساعير . . .

عندما تزحفون عبر اراضي اليمن لمحاربة الظل[illegible]قاق والفساد، فتكونوا قد قررتم ان تخلعوامن اعناقكم [illegible]ستبداد

وحكم الفرد . . . ولتستعيضوا عنه بحكم الشورى العادلة الشاملة التي تجعل مجتمعكم لاسيد ولامسود ، ولاحاكم ولامحكوم . . . فكفى مالاقيتم من الطبقات الحاكمة ، ومن الامارات المستبدة الجاهلة . . . لقد خلقكم الله احراراً ، ومن الظلم إن تسلموا قيادتكم لأناس تجردوا من الضمير والوجدان .

الآن :

علينا ان نشرع بالزحف جاعلين هدفنا القضاء على الممالك والامارات والاقطاعات ودول الحصون والقلاع ، وأوكار شيوخ العشائر ، ومنازل الطغاة والمستبدين . . . . . وانتم ايها القواد يارفاق النضال واخوة الجبال أوصيكم بأن تقيموا معسكراتكم على سفوح الجبال . . . واجعلوا الرقباء في ذروات المرتفعات ، وأعالي الجبال ، ومناكب الهضاب لئلاّ يأتيكم العدو على حين غرة . . . وجهزوا جنودكم بالتروس والرماح . . . ووكلوا امر حمايتكم الى الرماة ، فما من قوم جهزوا جيشهم بالرماح والتروس إلاّ وكانوا وكأنهم في حصون منيعة وقلاع حصينة . . . وعليكم ان تحرسوا جنودكم بأنفسكم وان تراقبوا امورهم ، واياكم ان تذوقوا نوماً قبل ان يكونوا قد اكتفوا من النوم والاستراحة .

انني ومن هذا المكان اعلن قيام الدولة اليمنية العربية الكبرى ، وانهاء حكم الامارات والسلطنات والقبائل . . . وابطال الخطبة في عموم مساجد اليمن باسم الخليفة العباسي ببغداد ، وجعلها باسم خليفة المسلمين في مصر المستنصر بالله . . . وقبل ان اخطوخطوة واحدة انذر امراء اليمن وامنح اصحاب الدويلات

فرصة للاستسلام دون قيد أو شرط . . . وإلاّ فليس امامهم إلاّ الحرب والاخضاع بالقوة .

ومشت الجحافل الجرارة باتجاه «تهامة» . . . ولمعت السيوف كأنها سراب الصحراء عند اشتداد الحر في الظهيرة . . . وردد الجيش الثائر . . . الله أكبر . . . الله أكبر . . . والعزة للعرب . في تلك الايام. . . كانت قدتجددت حركةمعارضة عنيفةمن قبل الامراء واصحاب الدويلات والقلاع والعشائر . . . وكان مركزها في «تهامة» لدى دولة الاحباش . . . . فهؤلاء الاحباش عندما علموا بزحف «علي الصليحي» نحو ديارهم جهزوا انفسهم للحرب بقيادة زعيمهم «نجاح» . . . والتقى الفريقان في «صعفان» المتصل «بتهامة» فدارت المعارك الطاحنة وكانت الجولة الاخيرة للصليحي . . . ولكن لم يلبث ان عاود الاحباش الكرة ، فجمعوا جمعهم في موقع «ابن طرف» . . وكان جيشهم يتألف من عشرين الف محارب ، فلقاهم الصليحي بألفين وسبعمئة فارس ، وهذه المعركة عرفت في التاريخ بمعركة «الزرائب» . وقد بدأت في الصباح عندما التحمت السيوف واشتبكت الرماح وتقارعت الحراب وارتفع الصليل والصهيل والصراخ . . . وكان «علي» في المقدمة يكرّ على الاعداء فيجندل رؤوسهم ، ويلحق بهم الخسائر ثم يعود الى صفوف جنده ينظمهم ويحثهم على القتال والاستبسال . وفي اليوم الثاني ابدى الاحباش صبراً عجيباً وشجاعة نادرة وثباتاً غريباً ، أما في اليوم الثالث استؤنفت المعركة من جديد فاصطبغ السهل بالدماء ودوّى صليل السيوف في الفضاء ، وانك لترى الخيل تدفع

بصدورها الخيل والرماح تتعثر بالرماح والسيوف تعانق السيوف الى ان اصبحت الساحة ارضاً جرداء لا تجد فيها سوى الجثث والاشلاء ، فتلك السهول التي امرعت في الماضي وأزهرت وكانت مظهراً فتاناً قد تحولت الى هشيم ، وتلك المروج التي كانت تنيرها شمس دافئة تريق على النبات انوارها لتلبسها الحياة قد حالت الى لهب تصاعد الى السماء حتى حجب الانوار ، وازدادت المعركة عند الظهيرة شدة وروعة ، فاختلطت اصوات الابواق باستغاثة الجرحى ، والصليحيون رابطوا الجأش يقتحمون الصفوف ويدفعونها بقوة السيف .

كل هذا والاحباش لم يستسلموا بل حملوا حملات يائسة وبذلوا الجهد الذي ينبغي ان يبذل في الساحة ، واظهر قوادهم دهاءهم الحربي وخبرتهم في القتال ، وحمي وطيس المعركة في الجولة الاخيرة ، واضطرب الاحباش ، وتضعضعت قواهم امام كوات الصليحيين الباسلة ومازال الوضع مستمراً حتى وهنت قواهم ووقفوا مترددين حائرين وقد احاط بهم جيش «علي» احاطة السوار بالمعصم . . . وهنا رأى القائد الكبير ان يفتح لهم منفذاً . . . فهرعوا بالنفاذ منه وولوا الادبار وهم جماعات وكتائب لم تلبث ان اصبحت ضالّة في القفار . . . أمّا نجاح وأولاده وكبار الاحباش فقد فرّوا الى جزيرة «دهلك» في البحر الاحمر .

عاد «علي» الى خيمته والفرح آخذ منه ، ونادى قواده وهنأهم على ماحققوه من احتلال منطقة «التهائم» و«زبيد» ومايتبعها . . .

وبعد ان احتجبت الشمس وراء الافق ، هبّ نسيم المساء عذباً فحرّك اعلام الدولة الجديدة التي ارتفعت فوق روابي تهامة في تيه وخيلاء رافعة رأسها الى العلاء .

* * *

بعد ان قضى «علي الصليحي» على دولة الاحباش الكبيرة في «تهامة» و«زبيد» ، وبعد ان عينّ عليها والياً ، وترك فيها حامية . . . اخذ بالزحف من جديد . . . فمن مبادئه عدم الركون الى الراحة او النوم على الانتصارات . . . بل متابعة الانتصارات بحكمة وجرأة وبراعة حتى النهاية .

ومن «زُبيد» زحف باتجاه «مسّار» و«حراز» فتفقد مواقعها . . . ثم تابع الزحف باتجاه اليمن الاسفل ، فاستولى على جبل «صبر» وعلى دولة «بني الكرندي» وعلى دولة «المعافر» وعلى حصن «الدماة» ومنه قصد حصون «حب» و«بعدان» و«السحول» و«الشواني» التي كان يملكها الحسين التبعي ، وبعد ذلك دخل «الجند» وهي مدينة اليمن الاولى ، ومنها انطلق الى «عون» واستولى على بلاد «بني معن» . وخلال هذه الفتوحات كان «علي الصليحي» يسير في الناس سيرة حسنة فيمنح العفو والصفح ، ويبسط العدل والمساواة والحرية ، ويمنع كل تسلط وتعسف وظلم .

في تلك الاثناء ثار صاحب «صنعاء» . . . وخافت همذان على مستقبلها من الصليحي بالرغم من رعايته لها ، والسير فيها سيرة الحق والعدل . . . فجمعت جموعها في قرية «المرأبة» ببلاد حاشد . . . ومنها ارادت الزحف ، ولكن علي الصليحي تصدّى لهذه الجموع وضربهم ضربة قاصمة ممّا جعل شيخهم «الشريف

قاسم» يلجأ الى أحد الحصـون . فتبعـه الصليحي واضطره الى التسليم . . وعندئذٍ اعلن عن ندمه فاكرمه وخلع عليه .

وهـكذا طوى علي الصليحي اليمن طياً ببحارهـا وانهارهـا وجبالها وسهولها وقراهـا ومدنهـا ولـم يبـق فيهـا احـد إلاّ واعلن طاعته . . . وهذا ماشجعه على القدوم الى صنعـاء . فأعلن فيهـا ولادة «المملكة الصليحية العربية» واتخذ «صنعاء» عاصمة لها . . . فعمّر القصور وخطّط للشوارع وللحدائق وجعـل اهتمامـه موجهـاً للشعب وللخدمات العامة والاصلاح . . . ولم ينس الديار المقدسة من زياراته فحمل الكسوة والهدايا للبيت الكريم ، واخـرج من الاموال والصدقات ، وعامل الناس بالحسنى وسهـر على راحتهـم وأمنهم وحياتهم ، واظهر العدل والمساواة ، ومنح الحرية المطلقـة لليمنيين على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم بممارسـة طقوسهـم كما يشـاءون ، ووزع الحسنـات على المحرومـين . فطابـت قلـوب الناس ، ورخصّ الاسعار ، وأمّن طرقات الحج امنـاً لم يعـرف مثله . . . أمّا تشجيعه الزراعة والصناعة والتجـارة فحـدّث عنهـا ولاحرج . . . وبعد ان وفى بالتزاماته للشعب اليمني خصصّ وقتاً للعناية بأموره الخاصة . . . وكان قد اصبح له ثلاثـة اولاد هـم : «محمـد» ، و«المكرّم» ، و«الموفـق» . . . وابنـة واحـدة هي : «ميمونة» . . . فلما بلغ «محمد» مبلغ الرجـال سماّه وليّاً للعهـد ، وأعطاه لقب «الامير الاغر شمس المعالي» . . . واعلن هذا التعيين على منابر اليمن . . . وعندما مات «اسعد بن شهاب» حاكم «زبيد» ومايتبعها ولاّه مكانه ورمى من ذلك تمرينـه على اساليب الحـكم

وادارة البلاد .

ومن الامور المثيرة التي كان لها وقع عميق في نفسه وفاة مربيه ومعلمه «سليان بن عامر» هذه الوفاة التي جعلته يخرج عن قاعدة الملوك ويهرع مع اركان الدولة الى جبال «حراز» حيث ودّع اعز انسان عليه ، وكان الحزن والوجوم والاحساس بالأسى والفجيعة قد استولى عليه . . فوقف على قبره وقال : رحمك الله ياسليان فقد كنت حجة وطود علم راسخ . . . ان مصيبتنا فادحة ، ومصابنا جلل ، ولانملك من التعابير إلاّ القول :

غفر الله لك ، وجزاك خير الجزاء . . . فقد كنت لنا اباً ومعلماً ومثلاً اعلى للوفاء والاخلاص ، وتاريخاً كاملاً ، وسفراً من اسفار المعرفة . . . كنت الفضل والسمو والكمال . . . كنت النسر الذي لايمل الصعود في السماء ، ولاتثنيه الاحداث عن التحليق . فرحمة الله وعفوه . . . والهمنا الله الصبر .

* * *

قافلة الملك علي تسير على مهل منذ الصباح ميممة شطر «زبيد» وتتألف من الملكة «اسماء» وبعض المرافقين والعبيد والخدم والحراس الفرسان . . . وكانت بسيرها الوئيد تضرب مثلاً في الصبر وقوة الارادة والاستهانة بالصعاب والصمود امام الاحداث . . . وابتسمت الطبيعة للزوجين السعيدين ابتسامة الفرح ، وأخذ كل ماحولها يغني ويبتسم ويرحب حتى الازاهير النابتة على جانبي الطريق ، وهبّت نسائم الصحراء رقّافة تريد فكاكاً من فتور لم تعرف مثله قبل الآن ، وتمايلت اغصان النخيل المائس امام وسوسة النسيم الصحراوي العليل ، وغزت الالوان الجميلة الصحراء

فملأتها بالجاذبية والفتون حتى خيل الى رائيها انها اللؤلؤ او العقيق .

. . وتحت ظلال الشفق الصادر تعالت أصوات الحداة الشجية فرددتها التلال الوردية السابحة في شتى الألوان ، ولاحت قطعان الابل الساردة في الأودية كانها أشباح متوردة تعرض في أفق قصي بعيد ، وفاحت أعراف الشيح والقيصون في كل مكان من الصحراء الغارقة في الصمت والسكون ، وبدت المراعي الظليلية وأرض الحب والشعر والعطر والعاطفة ، وقد خلع عليها الحب البريء حلل الالوان والافنان ، وملأت الخيام والمضارب جميع النواحي وكانت تبدو في خطوطها السوداء والبيضاء كأنها أشرعة سفن في خضم لا يعرف أوله من آخره .

وظلت القافلة في سيرها الوئيد ، حتى بلغت طريق القوافل القديمة ، فراحت المشاهد الحلوة تتمثل حية أمام أبصار أصحابها . . انها ذكريات حلوة مشرقة بالأمل . . والى جانبها ذكريات أخرى مرة تغلفها الأحزان . . لقد سار الملك على الدروب العسيرة ، وأفكاره تنتقل عبر الأيام ولم يكن يدري أن هذه الرحلة التي يكابد مشاقها تكمن في طياتها الاحزان والالام . . وان وراءها مأساة . . واستمرت القافلة في سيرها بين شروق وغروب حتى أشرفت على «زُبيد» فخفقت القلوب ورفرفت كجناح حمامة طليقة .

كان حاكم «زبيد» وولي العهد «الامير محمد» ينتظر والده ووالدته اللذان أرادا القيام برحلة الى «زُبيد» لزيارته وقضاء ثلاثة

أيام في ضيافته . . وفي نهاية المطاف . . وصل الملك علي وزوجته الملكة «أسماء» الى «زبيد» . . فهرع الوجهاء ورجال القبائل من كافة الجهات لاستقباله والترحيب به . . ثلاثة أيام مع لياليها . . والناس في زبيد وكأنهم في عيد . . لقد كان الحماس يطغي عليهم فهتفوا ودقوا الطبول ونفخوا بالأبواق واترعوا الفضاء بالأناشيد الوطنية الثائرة التي ألفوها في حروبهم وهجماتهم ويتمثل فيها خيلاء البداوة ، وكبرياء الحضارة .

والآن : يا ابني محمد . . أريد العودة اليوم الى صنعاء . . فان مهمات كثيرة تنتظرني . . كما تشاء يا أبي . . اني سأرافقك مع العديد من الرجال حتى جبال «حراز» .

وانطلق موكب الملك علي في طريق العودة الى «صنعاء» . . وعندما وصل الى «المصقع» توقف الملك وأمر ابنه الامير محمد بالعودة بعد أن علم أنه يعاني من ألم في رأسه ، وقشعريرة ثم تابع سيره ولم يكن يدري ان حمى عنيفة قد دهمت ولده الغالي . . . أما الامير محمد فانه ما كاد يصل الى زبيد حتى اشتدت وطأة المرض عليه ، فهرع الاطباء اليه . . ولكن يد القدر لم ترحم . . فمات مأسوفاً على شبابه الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين عاما . . كان الوقت في الصباح عندما فاضت روحه الى خالقها فحمل الضحى النديان أعراف الحدائق المتأرجحة التي تسربت الى حجرته لينة ، وأخذت تمتد الى كافة النواحي الغارقة في الصمت والحزن ، ثم امتدت وامتدت كثيرا حتى تراقص ظلها الخفيف على جبين الشاب

الوسيم ، وقد أخذ الظل البديع يدغدغ شعره الاشقر المسترسل على جبينه الناصع وفوق عينيه المطفأتين .

يا للخطب الجليل . . كان كل شيء في «زُبيد» يدل على أن حادثاً كبيرا قد حدث . . الوجوم بدأ يظهر بوضوح على الوجوه في كل مكان ، والناس بين مصدق ومكذب . . فولي العهد الامير محمد الشاب الطري[1] العود المملوء بالصحة والشباب كان لأيام مضت ملء السمع والبصر . . فكيف مات الان وبهذه السرعة . . وجاءت الناس من مختلف الجهات وأخذوا يدخلون ويخرجون من القصر وآثار الحزن بادية على وجوههم . . وتمر لحظات يعقبها صوت يقول :

«كل من عليها فان . . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» .

أيها الناس . . مات ولي العهد الامير محمد . . فصلوا لراحته . . وادعوا له بالرحمة . . وهكذا يعود الوجوم الى الوجوه ثانية . . وتأتي الوفود تلو الوفود للمشاركة بالتعزية ولكنهم بين مصدق ومكذب . . ولم يفت هذا الحزن شباب الصليحيين فدلفوا الى مقر الحاكم ليشاهدوا الجسد الهامد ويتأملونه ويلثمونه ، برفق كانت دموعهم لا تنقطع وهم يودعون الشاب الجميل الذي امتاز بطيب النفس وسموها وترفعها وورعها والاحسان الى الضعفاء والسهر على مصالح الشعب .

وعاد الملك علي الى «زبيد» عندما بلغه الخبر وهو على مقربة من حصن «مسار» عاد ليودع فلذة كبده وولي عهده . ثم ليشرف

على دفنه . . ويتقبل التعازي . . وبعد ان قام بما يفرضه عليه الموقف المؤلم عاد الى «صنعاء» ليجد ابنته الوحيدة «ميمونة» قد فارقت الحياة حزناً على أخيها .

يا للمأساة . . ويا للخطب الجلل . . ويا لها من صدمة عنيفة تصيب الملك علي في الصميم ولكن إيمانه وعقله تغلبا على عاطفته . . وكان الصبر والسلوان هما الدواء .

* * *

ها هو عام ٤٥٩ هـ . . قد أقبل . . الملك علي لا يزال على عرش مملكته ، يقوم بالاصلاح ويؤدي الخدمات ، سائرا في السبيل السوي ، وكان قبل ذلك قد أذاع مرسوماً على الناس بتسمية ولده الثاني المكرم» لولاية العهد . . و«المكرم» . . هو زوج «أروى الصليحي» التي ذكرناها ,

في هذا العام قرر الملك علي زيارة الديار المقدسة . . فأصدر اوامره بنيابة الملك لولده «المكرم» . . وأرسل قبلة الى الديار المقدسة خمسين أميرا من أمراء اليمن المغلوبين على أمرهم ومئة وسبعين من أسرة الصليحيين ، وغيرهم من أقطاب قبائل «يام» و«جنب» و«سنحان» و«حرا» وقصد من هذا الاجراء تفادي الازدحام في الطريق . . أما هو فأخذ أخوته وولده الاصغر والملكة اسماء وحرائر الصليحيات والعبيد والحراس الاحباش الذين دخلوا في خدمته . . وانطلق الى الديار المقدسة تاركاً الامير «المكرم» وزوجته «أروى» في صنعاء .

وكان «سعيد الأحول» شيخ الاحباش يتحين الفرص للايقاع بالصليحي الذي أزال ملكهم وجعلهم مشرفين ومستعمرين . .

وعندما علم بازماع الصليحي زيارة الديار المقدسة عبر بلاده وانه لا ترافقه أية قوة عسكرية . . اتخذ الاجراءات اللازمة ، وقرر أخذ الثأر . . وعندما أصبح الصليحي في بلاد الأحباش لاحظ تحركات مريبة من قبل أتباع «الاحول» فاستقدم أحد مقدميهم «فرج البشي» وذكره باحسانه اليه ورفع مكانته وطلب اليه ان يحذر «الأحول» من ارتكاب أية خطيئة قد تجر عليه وعلى قومه أوخم العواقب . . ولكن «البنشي» أقسم له ان ليس له أي ضلع بما يجري ، كما عبر له عن استعداده للذهاب واحضار رأس الاحول . . ولكن هذا الناكر الجميل عندما وصل الى قومه حرضهم على ارتكاب الجريمة ، وأوعز صدورهم ، وزين لهم قتل الملك . . فجاء من أخبر الملك «علي» بما كان من أمر «البشي» فأرسل اليه بعض الحراس من الاحباش للحضور ، ولكن هؤلاء انضموا اليه ، وتسللوا الى قصر الوالي «أحمد بن شهاب» فقتلوه وأغاروا على «الحرازيين» فقتلوا الرجال والاطفال والنساء ونهبوا اموالهم ، وخربوا منازلهم ، وفي الوقت نفسه شكلوا فرقة قوامها ألف وخمسمئة محارب وزحفوا الى «المهجم» فلما سمع الصليحي بهم انقذ العبيد الذين ظلوا معه لتهدئة الحال ، وكان ظنه أنهم يقدرون احسانه وفضله ، ولكن النفس الشريرة أبت الا أن تسيء لمن أحسن اليها . . فحين التقوا بأبناء جلدتهم قالوا لهم :

«عليكم ان تعجلوا بقتله ، فان فاتكم هذه المرة لحق بأصحابه وعسكره وامتنع عليكم» .

فهرعوا اليه وكان قد وصل الى قرية «ام الدهيم» وهناك

انقضوا عليه ولم ينفع دفاعه ودفاع اخوته «عبد الله» وابراهيم» أمام الالاف من المقاتلين . . وهكذا وقعـوا تحـت حراب العبيد وقُتـل الصليحي وكل من كان معه من الرجال باستثناء ولده الاصغر الامير «الموفق» و«مهنا بن علي المظفر» فانهما أخذا السيدات الى دار خربة واعتصما وراء جدرانها . . فجاء الاحول وألقى الحصار عليهم . . وأخيرا اعطاهما عهدا وميثاقا بالمحافظة على الحرائـر والسماح لهـن بالعودة الى صنعاء ، فأمن الموفـق ومهنـا ، وعندمـا خرجـا قتلهما الاحـول ، وسـاق النسـاء الى «زُبيد» بعـد أن جردهـن من الحلي والأموال . . وقد وضـع رأس الملك علي على رمـح ، ورأس أخيه ابراهيم على آخر وركزهما أمام هودج أسماء . . وعند وصولهن الى زبيد خصص الاحول لهن دارا فخمة وبذل كافة الجهود في سبيل الحفاظ على كرامتهن .

انـنا عندما نختم حديثنا عن الملك «علي الصليحـي» نقـول والفخر يغمر نفوسنا بان عهده كان من أنضر وأسعد العهود التي شهدتها اليمن السـعيدة ، ويكفـي ان يكون التـاريخ قد اعتبـره مؤسس دولة كبرى ، وعبقرية فذة قلما يجود به الدهر .

قال المؤ رخ عمارة اليمني عنه :

ان هذا أمراً لم يعهد في جاهلية او اسلام .

وقال العرشي في كتابه «بلوغ المرام» :

لم يقع لاحد فيمن ملك اليمن مثلما وقع لعلي الصليحي . فقد استولى على اليمن سهله وجباله ، شماله وجنوبه، شرقه وغربه في مدة يسيرة بعد ان قهر أعداءه لذلك فهو لا يقـل في نظرنـا عن

بعض القواد الفاتحين الذين لمع اسمهم على صفحات التاريخ بما أحرزوه من انتصارات وما قاموا به من فتوحات وأعمال مجيدة» .

وذكره المؤرخ «الفاسي» في كتابه «تحفة الكرام» فقال :

فطابت قلوب الناس ، ورخصت الاسعار ، وأمنت الحجاج أمناً لم يعرف له مثيل من قبل حتى انهم كانوا يعتمرون ليلا ونهارا وأموالهم ورحالهم محروسة .

وقال ابن الجوزي في «مرآة الزمان» وأيده «عُمارة» :

انه كان أديباً وشاعراً يعطف على الأدباء ، ويصل الشعراء ، وكان يعرف بأن الشعر يجب ان يكون السلاح الماضي في خدمة الدولة .

الفصل الثاني

كل ما في القصر الملكي في «صنعاء» ينطق بالصمت الرهيب ، والحزن العميق . . حتى الوفود التي زحفت اليه من كافة الجهات ، كان يران عليها اسى لا عهد لها فيه . . وسرعان ما انتقل الصمت والوجوم من القصر الى قلب مدينة «صنعاء» . . . الى المرابع . . الى المنازل . . الى الحدائق . . الى الدروب . . الى كل مكان حتى إلى القرى المحيطة بالعاصمة ، ثم الى المدن اليمنية البعيدة .

اما ولي العهد «الامير المكرم» فلم تغمض له عين منذ أن سمع بخبر النكبة . . الافكار انثالت على رأسه ، والاحزان غمرته ، والدموع لما ينقطع سيلانها . . وعزل نفسه اخيرا عن الناس ، وانقطع الى الذكريات . . تذكر والده البار وشقيقه وأعمامه . . تذكر امه «أسماء» الاسيرة . . وصور المأساة . . وظل يرافق ذكرياته دون أن يحس شيئاً من حوله . فالايام والليالي تمضي بسرعة وهو لا يحس بمرورها . . فلقد غاب عن الزمن في تلك الايام ، وغاب أيضا عن المكان ، وعن كل شيء الا عن ذكر الهدف

الذي يتطلع اليه ، والثأر الذي أصبح مطلبـه في الحياة ، والأمـل الذي يسير وراءه . . اما نفسه فقد وهنت من الحزن ، وتضعضعت حواسه ، وخرس لسانه امام الفاجعة الاليمة ، وكاد المصاب يفقده وعيه ، ويجعله فاقد الشعور ، وجاءت في خاتمة المطـاف موجـات الهواجس السوداء تنسيه كل ما حوله . . وبينما هو على هذا الحال ، اذ دخلت عليه زوجته «أروى» فقالت :

والآن يا مكرم . . ألا ترى معي انك قد تجاوزت الحدود . كأني بكَ لا تخشى السن الناس . . فهل يرضيك ان يقولوا عنـك غدا أنك لست ابن «علي الصليحي» . . فبربك لا تدع لهم مجالا لنقدك والتحدث عنك . . عهدتك شجاعا ومقداما يصمـد أمـام الاحداث ويصبر على المصائب . . . فما بك قد وهنت وأصبحت مريضا ؟.

ان ما وقع كان امرا مقدرا ، ولايمكن للانسان مهما بلـغ به الحذر ان ينجو من الاقدار . لان حياته محفوفـة بالاخطـار ، وقـد يتمكن جبان من القضاء عليها .

الآن :

جئت أذكرك . . بان عليك واجباً كبيراً ومسئولية عظمى . . فهذا الملك الواسع لمن تتركه اذا أنت تهاونت وتقاعست وارتديت ثياب الصوفية . . واني لا أدري ماذا ستفعل ، وما هو موقفك من الاحداث الطارئة ؟ . . أتريد أن تتخلى عن الملك ، وتصبح رجلا منسيا لا شأن له في المجتمـع . . ألا تدري بان والدتـك تـناديك لانقاذها . . الا ترى انـه من العـار علينـا تركهـن في أسر هؤلاء الاحباش الانذال الذين تجردوا من الاخلاق ، وأبوا ان يعملوا ان

ليس من شيم الفاتحين الذين اعدوا الجيوش للفتح ان يقدموا على مثل هذه الجريمة الدنيئة .

هذه الأرواح البريئة يا مكرم ذهبت في ساعة شؤم تشكو الى الله ظلم الوحوش الضارية . . ظلم الطغاة الجبناء الذين رفضوا الا ان يسجلوا على أنفسهم وفي صفحات التاريخ لعنته الابدية وانت عليك أن تأخذ من المأساة درسا وعظة . . فلا تنام على ضيم ، ولا تأمن للاعداء .

عليك بالصبر يا مكرم . . ولا تنسى ان هذه الارواح البريئة ستظل تزف علينا من عليائها لتنفحنا الايمان والشجاعة .

تعال معي الى الديوان . . فمطلوب منك الان دعوة كبار رجال الدولة والقواد الى اجتماع سريع تعلن فيه رسميا وبقوة أعصاب : وفاة الملك علي ، وقيام الملك المكرم ، . . ان عرشك قد أعد لتستوي عليه ، فلا تضيع الفرصة . . وعليك بعد هذا أن تبدأ . باعداد العدة للزحف الى «زُبيد» لتخليص الاسيرات ، ولتنفيذ شعار إبادة كل الاحباش جماعات وأفراد اينما وجدوا في بلاد اليمن . . ويجب ان لا تنسى بأنني اتوقع قيام انتفاضات داخلية وثورات كبرى من أعدائنا . . فربما اتخذوا من المأساة فرصة للهجوم ظنا منهم انك لا تستطيع ضبط الأمور ولا الاضطلاع بمسؤ ولية الحكم .

وبينما كانت الشمس تشرق ، ثم تتوارى خلف الغيوم . . هبت الريح رخاء والتمعت الشفاه تضيء للعاشق ظلمات العباب ، واطمأن البحر الى صاحبه حتى خاله السر عليه من ظهر الأرض . .

فكان يطويه الى منية نفسه ، وهوية قلبه في كل موعد منتظر ، ثم يثوب على متنه حين ينصدع عمود الظلماء ، وكأنه يمتطي من ظهور الامواج الصافنات الجياد .

لقد كان فجراً غائماً يكاد سنا برقه يخطف الأبصار ، ورعوده تهد جوانب الافق انه فجر غريب لم تألفه اليمن منذ زمان طويل .

وهب المكرم من مجلسه ، وأبعد غشاوة كانت على عينيه .

وسار الى ديوانه كما يسير الملاح حين تبدو الارض لعينيه . . وكان يردد .

لقد فتحت «أروى» عيناي على الحقيقة . . سأسير الى هدفي . . واتبع طريقي وسأقفز فوق الحواجز والمصاعب .

* * *

الطبول تقرع قرعاً متقطعاً، والبوق الملكي يدوي في أرجاء صنعاء دويا هائلاً . . فتهب مذعورة وكان ملك الموت قد أخذ يدعوها الى يوم الحشر . . ماذا حدث ؟

وخرج الاهلون من منازلهم يتساءلون في دهشة وخوف . . دون أن يظفر أحد منهم بجواب وازداد التشاؤم وكثر التساؤل . . بينما تجلجل البوق في دويه ، فأثار الحماس وبعث اليقظة في النفوس ، وفي أقل من قليل تحولت العاصمة اليمنية الوادعة المطمئنة الى أرض جائشة ثائرة . . وكان كل هذا يؤذن بأن حربا طاحنة على وشك الوقوع .

وظهر الملك «المكرم» بلباسه الحربي على رأس فريق من قواده وهو يمتطي جواده ويعبر الطريق العريض . . وعند وصوله الى الميدان الكبير تدافع الناس نحوه يستفسرون الخبر الذي أقض

مضجعهم ، وأثار فيهم الخوف ، وقد كانت رؤيته في ملابس الحرب كافية لازدياد المخاوف وارجاع صور الماضي . .

واعتدل المكرم على ظهر جواده ، وعلا صوته ، وقال مخاطباً الجماهير المحتشدة :

لاأرى سبباللخوف والهلع . . كمالاأرى مبررا لخروجكم الى الشوارع تتصورون الموت محيقاً بكم ، وترتعدون خوفاً كالنساء . . لا شيء أيها الناس . . عودوا من حيث اتيتم وإياكم والانصات الى دعاة السوء الذين ينفخون في بوق الهزيمة .

انني في طريقي لضرب الفئات الخارجة على الدولة . . وهذا البوق الذي تسمعون ما هو الا دعوة للجهاد . . ردوا معي :
مات الملك . . عاش الملك .

فصاح الجمهور المحتشد مهللاً ومكبراً ، وسرت فيه نشوة من الحماس ، وطغت الجماهير في ساحات صنعاء كالاتي المنهمر ، وأترعوا الفضاء بالأناشيد الوطنية الثائرة التي رددها في حروبهم وهجماتهم ، وتمثل خيلاء البداوة وكبرياء الحضارة . . وامتلأت نفس المكرم زهواً وفخاراً ، وقد تجلى بدروعه اللامعة وسيفه البتار . . وأعاد القول :

سأضطر الى الغياب عنكم . . فلا بد لي من تأديب العصاة بنفسي . . فأرجعوا في أموركم الى الملكة «أروى» فهي ستقيم دعائم العدل بينكم . . وادعوا لجيشكم الباسل بالنصر . . ثم خاطب جنوده قائلا :

الحديث ايها الجيش الباسل للسيوف الظامئة ، وللرماح المتعطشة . . أمامنا عدو جاهل مغامر كثير العدد يريد التخريب والتقتيل . . فعلينا ان نبرز حماسنا المتقد في القلوب وشجاعتنا التي تذري بشجاعة الاسود .

ليس فيكم الا كل جندي مخلص لبلاده وأمته ، فعلى كل منا ان يعمل تحت راية أمير فرقته ، وليضحي كل منا بحياته في سبيل بلاده .

سوف أنبئكم عن الخطة الواجب علينا تنفيذها لقهر العدو ، وأخذه اخذ أعزة قادرين ، فلا يكفي ان يتراجع هذا العدو الى الوراء ، بل يجب ان يسحق سحقاً أبدياً . . وسار المكرم امام جيشه لمواجهة قبائل : «كحلان» و«وهران» و«عنس» و«يحصب» الذين تجمعوا في موقع واحد . . وحين التقى بهم دارت رحى المعارك الطاحنة التي استمرت أكثر من سبعة أيام ، في ختامها دارت الدائرة على المجموعة المذكورة فتفرقت عناصرها وشردت في البراري والقفار . . تاركة رفاقها على أرض المعركة جثثاً هامدة .

بعد تحقيق هذه الانتصارات الحاسمة توجه «المكرَم» الى «حراز» لتأديب قبيلتي «مجيح وكرار» فأعادهما الى الطاعة مكرهين . . ومن هناك زحف الى ديار قبيلة «بكيل» وكانت قد أعلنت العصيان أيضا ، فأصلاها ناراً حامية وقتل العديد من زعمائها ، وضرب المثل على أنه لا يقل عن والده حكمة وبعد نظر وحيلة في الحروب .

وأخيراً عاد المكرم الى صنعاء وهو يجر أذيال النصر . . وهكذا

أعاد للدولة الصليحية هيبتها واعتبارها . . وفي تلك الاثناء وافاه الى صنعاء كل من القواد : «عامر بن سليمان» و«مدافع الجبني» و«عمر اليامي» و«الحسين السخاني» وهؤ لاء كانوا قد ذهبوا الى الديار المقدسة بأمر من الملك علي ، وعندما علموا وهم في الحج بما وقع للملك عادوا ، ولكن الاحباش أقاموا الكمائن للقبض عليهم حتى ذكر انهم خاضوا سبعة عشر معركة معهم .

* * *

عادت الزهرات ، وترنح السوسن وغردت البلابل ألحان الشباب. فتفتحت آذان الورد ، وحملقت أحداق النرجس ، وهبت نسمات الصباح وكأنها حلم في جفون العذارى او لحن موسيقي ارتفع حتى بلغ عنان السماء ، وغمر الكون ، واستقر في كل قلب .

انه الصباح الجميل . . وفي الصباح يطيب اللقاء ويحلو الحديث ويتفتح الذهن انه الرحيق العذب ، أو السلسبيل المصفى الذي أرسله الله ليفتح القلوب المغلقة ، وينعش الآمال البعيدة ، ويروي الصدور الظمأى . . وكأنه ما جاء الا ليحمل التهاني والبشائر الى الملك المكرم والى جيوشه بالانتصارات التي أحرزها على القبائل المنشقة .

في ذلك الصباح الاغر جلس الملك علي في ديوانه يحيط به قواده الذين جاءوا في ساعة مبكرة تلبية لنداء الواجب . . وبينما هم يتجاذبون أطراف الحديث . . دخل رسول يحمل رسالة جاء فيها :

ان الاحباش لم يكتفوا بما ارتكبوه من جرائم حتى أعدوا حملة وهاجموا حصن «مسار» ولكن حاكمه «مالك بن شهاب» احبط

محاولتهم ، وأجبرهم على الرجوع وهم يجرون أذيال الخيبة بعد أن كبدهم خسائر فادحة .

ولم ينتـه المكرم من قراءة الرسالة حتى دخل رسول ثانـي ومعه رسالة جاء فيها :

ان الاحباش بقيادة «بلال» و«أبو الفتوح» أبناء نجاح الحبشي قد أغاروا على حصن «التعكر» . . ولكن حاكمه «أسعد بن عبـد الله» تمكن من دحرهم واذلالهم وأرغمهم على الفرار .

عندما وصل المكرم الى هذا الموضع قال لقواده :

لقد سمعتم . . فماذا ترون . . يبـدو ان هؤلاء الاحبـاش الجبناء سيستمرون باقتراف الجرائم ، والعيث فسادا . . فالى متى يستمر سكوتنا عنهم ؟ فأجاب القائد عامر بن سلمان :

أرى يا مولاي ان تبقى حروبنا مع الاحباش دفاعية . . فأنا ضد كل حرب شاملة معهم الان . . لان اخراج حملـة كبـيرة من صنعاء والتوجه بها الى «تهامة وزبيد» فيه اكبر خطر على الدولة . . وكل ما أخشاه اذا فعلنا ان يغتنـم العـدو الفرصـة ، وينقض على صنعاء . . لهـذا فان تأديب العصـاة داخـل اليمـن والقضـاء على الانتفاضات والثورات قضاء مبرماً هو أهم من كل شيء . . فغدا بعد أن نعيد للبلاد أمنها واستقرارها . . نزحف الى بلاد الاحباش ونصفي حساباتنا معهم .

هذا هو الرأي الصائب يا عامر . . وما دام الأمـر كما رأيت فاني اقترح : أن تسافر على رأس حملـة الى «حمـير» والى «مغـرب اليمن . . وكل ما أطلبه منك توطيد الأمن ، والقبض على الثائرين

وارسالهم الي . . ولا تنسى أن تأخذ معك «أحمد بن المظفر» . . وبعد أن تنتهي مهمتكما هنالك تعرجان على «حراز» فقد علمت ان قبيلتا «مجيج وكرار» قد عادتا للظهور .

أما انت «يا اسماعيل بن أبي يعفر» فاذهب الى «يحصب» و«رعين» واقض على الفتنة قضاء مبرماً ثم تعود بعد ذلك الينا .

وهكذا انطلق القواد الثلاثة في اليوم الثاني حسب الاوامر الملكية . . اما المكرم فقد انتهى اليه أن «حمزة الحسيني» قد أعد جيشاً جراراً مؤلفا من خمسمئة فارس ، وخمسة عشر ألف رجل ، وقصد مهاجمة العاصمة صنعاء . . وعندئذ نفخ المكرم في بوق الحرب وأعد جيشه اعداداً حسناً وانطلق باتجاه جيش الحسيني فالتقيا في «الملوى» ونشب القتال . . وبعد عدة معارك تمكن المكرم من السيطرة على الساحة بعد أن قتل حمزة وأولاده . . وشرد الباقون ويذكر التاريخ انه قتل منهم ثمانمئة جندي .

* * *

والآن : يا مكرم . . ألا ترى ان الوقت قد حان للزحف الى «زُبيد» وتخليص الأميرات الصليحيات من أسر الاحباش .

هذا ما أفكر به يا أروى الآن . . خاصة بعد أن وصلتني اليوم رسالة من الملكة «أسماء» وقد أرسلتها في داخل رغيف من الخبز مع أحد الشحاذين . . انني سأعقد اجتماعاً مع قوادنا في هذه الليلة ، وسوف يبدأ زحفنا بعد غد إنشاء الله . . يجب أن تعلمي باني سأوكل اليك أمر الملك بالنيابة عني . . فكوني كما عهدتك . .

في الموعد المقرر . . وفي احدى الساحات العامة في صنعاء ،

وقف المكرم خطيباً ، وكان بثياب الميدان فخاطب الجيش والجماهير قائلا :

أيها الجنود . . الذين كتبوا في تاريخ اليمن انصع كلمات المجد والبطولة . . اننا قررنا الزحف والحرب . . فمن كان يرغب في الحياة فلا نطالبه بمشاركتنا . . نحن ذاهبون لأخذ الثأر من الاحباش وستكون حربنا معهم حرب إبادة . . فمن شاركنا كان منا ، ومن تخلى عنا فهو حر . . ان زحفنا ليس لغرض من الدنيا نصيبه ، ولا لمال نخزنه ، ولا لشيء من متاع الدنيا نملكه . . غايتنا ادراك الثأر ، وأخذ الحق من هؤلاء العبيد الاحباش ، واستنقاذ حريمنا . . فنحن لا نقصد الاضرار بأحد من الناس ، ولا تغيير شيء مما يملكون ، وقد قررنا ان لا نتعدى على زروع الاعداء وأرزاقهم ومواشيهم وخاصة حريمهم . . لهذا أرجو من جنود المكرم ان تكون سيرتهم حسنة ، وان يتركوا وراءهم حسن الأحدوثة وحميد العاقبة .

وانطلق المكرم وهو على رأس جيشه من صنعاء باتجاه «زُبيد» وكانت أنوار الصباح تبتسم للورد وللأقاح ابتسامة مضيئة ، وتريق على مياه الغدران الهادرة حلل البهاء والـلألأ . . اما المروج السندسية ، والغابات الشجراء ، والجبال الشماء التي حناها الندى البليل فراحت ترقص فرحاً امام النسمات الرطبة الساجية التي أرعشتها وأمالتها ، وجعلت اعرافها الذكية تطفح في كل ناحية من نواحي صنعاء الضاحكة المستبشرة فكانت تغني ألحان الرجاء .

وبعد ان قطع الجيش المسافة . وصل الى مناطق السهول

التي تتكوم وسطها الرمال والى الروابي الجرداء المعراة من كل بنت ، والى الواحات العريضة المرعة التي رصعت الصحراء بلونها السندسي الجميل . . هناك شجيرات الشيح والقيصوم ، وحفيف أوراقها وهناك عبير الورد والأزاهير والرياحين الذي يخرج من دنيا فسيحة يرف عليها ظلال الحب والعاطفة والجمال .

وأخيراً :

وصل المكرم على رأس جيشه الى النقطة المقررة . . فحط الرحال على مقربة من قرية «التربية» . . وفي الصباح عندما أذّن المؤذن هرع الى مسجد القرية للصلاة . . وكان امام المسجد قد فرغ من الصلاة ، ووقف يتلو بعض الآيات . . فنظر . . واذا بفارس يركز رمحه ويشرع بالصلاة . . فقال الامام :

من هذا الذي لم أرَ في ولد آدم ، أتم منه خلقة ، ولا أحسن منظراً ، ولا أطيب رائحة . . ولم يلبث الصباح حتى انبثق ، فأقبلت الخيل نحو المكرم بعد خروجه من المسجد ووقف كل رئيس فرقة يسلم قائلا

أنعم الله صباح مولانا وأدام عزه . . فيرد عليهم :

مرحباً بفرسان العرب .

وبعد أن اكتمل استعراض الجيش ، طلب المكرم القواد ودخل معهم الى المسجد حيث وزع عليهم المهمات العسكرية وألقى اليهم الوصايا وباركهم .

* * *

بعد أن انتهى الاجتماع . . أمر المكرم جيشه بالتقدم نحو «باب الشبارق» وهو الباب الشرقي لبلدة «زبيد» . . وعندما أصبح

في هذا المكان أخذ بتعبئة القوات واعدادها . . فكان هو وعامر بن سليمان» و«أحمد بن المظفر» و«أبو الحسين بن المهلهل» و«الحسين السخاني» في القلب ومعهم فرسان «نهد» و«حمير» و«سخان» . . ووضع «عمران اليامي» و«مدافع الجبني» و«محمد اليافي» في الميمنة وكانوا يقودون أبطال « «همذان» و«يام» و«جنيب» . . ووضع «مالك بن شهاب» في الميسرة ومعه أبطال «حراز» . . وكان عدد جيش المكرم عشرة الاف بين فارس وراجل . . اما الاحباش فكان عدد قواتهم المحاربة ستة كراديس اي ثمانية عشر ألفاً .

ولم يطل الانتظار . . فالتحم الجيشان بعضهما ببعض ، وعلا الغبار ، وبرقت السيوف ، ولمعت الرماح والحراب ، وسال الدم غزيراً ، وتعالى النشيج والانين ، وتحول ذلك السهل الى جحيم ينذر كل من يقترب منه بالموت ، وطغت منذ الجولة الاولى جيوش المكرم على الحومة طغيانا عاماً . . . بعدما نفرت الاعداد الرديفة التي خبأها المكرم وراء الكثبان والتلول ، وخرجت معها الخيول ، وعصفت الابواق حتى أن اصواتها كانت في الاجواء ، ورددتها السهول والربوع .

لقد ظلت أرجاء زبيد تمور بلجج من الخيول والرجال والغبار طيلة اليوم الأول . . وكان المكرم في القلب يثب على الاعداء . . يشق صفوفهم ، ويجندل فرسانهم ثم يعود غير مكترث بقوتهم وعددهم ليلقي على جنده دروساً في الحرب نافخاً في عزيمتهم وهمتهم حب الموت والتضحية . . ثم يعود ثانية الى الحومة وهو أشد ما يكون عزيمة ومضاء لالتحاف الغبار وخوض الغمار . . وتحمي

وطيس المعركة في آخر النهار ، وتحول أرض «زبيد» الى لجج مؤازرة تدافع في أرجائها صليل السلاح وقعقعة الرماح ونشيج الجرحى وفحام القتلى ، ثم تصطبغ بالنجيع الاحمر ويحجب الافق الغبار المتصاعد ، ولم يفقد جيش الصليحي رباطة جأشه رغم تفوق العدد عليه بالعدد . . فكان يصدق الحملة بنظام واعتداد شاعراً بأن الواجب يقضي عليه بالاستمرار والقتال حتى آخر رمق من الحياة . .

وجاء اليوم الثاني ليشهد أقسى معركة عرفتها اليمن في تاريخها . . فعندما تقابل الجيشان برز «سعيد الاحول» الحبشي في الساحة ينفخ في جيشه حب الموت محاولا استعادة ما فقده في اليوم الاول . . ولكن عند الظهيرة انطوى عليه الجناحان فتراجع ثم تراجع وأخيراً كان لابد من الهزيمة . . . ولكن الجيش الصليحي لاحقهم وسد عليهم منافذ الهرب وأخذ يطحنهم ولم يسلم منهم الا من كتبت له حياة جديدة .

وجاء عامر الى حيث كان المكرم فقال له :

مولاي . . انظر الى الجبناء كيف ولوا الأدبار . . انظر الى صفوفهم المهشمة كيف انقسمت الى شرازم وتغرقت في البراري والقفار . . ان كثيرا منهم قد اختبأ في المنازل بين النساء ، وبعضهم لحق بشاطيء البحر بانتظار سفينة تنقذه من الموت .

وكان «الأحول» قد أعد خيلا مضمرة على باب «زبيد» الغربي المسمى «باب النخل» فهرب مع أولاده وأقربائه الى البحر حيث كانت احدى السفن بانتظارهم ، فنقلتهم الى جهة مجهولة . .

وقيل الى جزيرة «دهلك» . .

في هذه الدقائق الحاسمة . . ترك المكرم الحومة لقواده . . وهرع الى مقر والدته «أسماء» وكان قد تنكر وأخفى وجهه . . فقال :

أدام الله عز مولاتنا . . فقالت :

مرحباً بفرسان العرب . . من تكون ؟

أنا احمد بن علي بن محمد .

أن احمد بن علي في العرب كثير . . فأحسر عن وجهك حتى أعرفك . . فرفع المكرم اللثام عن وجهه . . فقالت :

مرحباً بالحبيب «المكرم» . . من كان مجيئه كمجيئك فما أخطأ ولا أبطأ . . وهنا نزل عن ظهر جواده ، وسجد لله شكراً ، ثم عفر خده بالتراب . . وبعد ذلك سمح للقواد فدخلوا وأدوا التحية للملكة .

* * *

عاد الملك المكرم الى صنعاء بعد انتصار حاسم تحدثت به اليمن . . . وكان قبل عودته قد عين «الأمير سبأ الصليحي» حاكماً على «زبيد» وما يتبعها ، وترك له حامية كبيرة كافية لقمع اية انتفاضة أو ثورة .

وفي صنعاء عمت الأفراح الناس على اختلاف مللها ونحلها بعودة الملكة «اسماء» والاميرات الصليحيات ولكن الاستقبال اقتصر على «أروى» التي خرجت لظاهر المدينة ومعها كبار رجال الدولة والوزراء والقضاة . . . وهنا لا بد من التساؤل . . هل عاد المكرم الى قاعدته ليخلد الى الراحة والسكون ، ويتفرغ الى الخدمات

والاصلاح ؟ . . . ان الوقائع تثبت بانـه لم يمض عليه سوى أيام قصيرة حتىٰ قام «الشريف قاسم العياني» بثورتـه . . . فاعتصـم بحصن «ذبيان» واخذ يشن الهجمات ويعيش فساداً . . . . فخرج المكرم بنفسه اليه وحاصره ، وتمكن من القضـاء عليه خلال ثلاثـة ايام . . . ومـن هنـاك توجـه الى «ذي اشرف» وجبـل «مسـور» و «حملان» فأعاد الى ربوعهم الأمن والاستقـرار ، وفي تلك الاثنـاء علم ان «التبعي» و «السخطي» و «الكلالي» و «بني الكرنـدي» ، وأصحاب «يحصب» و «رعين» قد شكلوا جبهة معارضة قوية لتهديد الدولة ، واحتلال المواقع التي تمتلكها . . . . فعاد الى صنعاء ومنها توجه الى «وادي بنيون» فأخضع «بني صعب» من «عنس» و «بني الحارث» و «مذحج . . . . وتابع الزحف الى جبل «الشعر» الـذي تحصن فيه «التبعي» و «السخطي» فهجمهما ولـكنهما فراً واعتصما ثانيةً في حصن «الفراغ» فلحق بهما والقىٰ الحصار عليهما ، ومازال يضيّق عليهما الخناق حتى سلما انفسهما ، واعلنـا عن خضـوعهما وتوبتهما .

بعـد هذه الانتصـارات الحاسـمة ، عاد المكرم الى صنعـاء ثانيةً . . . ومنها توجه الى جبل «الشعر الذي اعتصـم فيه «سـعيد الأحـوال» الحبشي وأركان جيشـه . . . وكان الأحـول قد عاد الى الساحة من جديد لعرض العضلات والانتقام . . . . فضيق المكرم عليه الحصار. . . . وعندها حاول اختراق النطاق والفـرار تصدّىٰ له «عامر بن سليمان» وتمكن من قتل ولديه «بلال» و «مالك» . . . . أما «سعيد الأحول» فقد تمكن من الفرار . . . . تاركاً قواده وجنوده

تحت رحمة الصليحيين .

هنا . . . كان على المكرم ان يعود الى صنعاء بعد ان وصله نعي والدته البارة «اسماء» . . . . وفي صنعاء شيعت الملكة الوالدة بالحسرات والاسى والدموع . . . وكانت قد تركت لولدهـا المكرم وصيته تنص عليه بضرورة نقل قاعدة ملكة الى بلدة «ذي جبلـة» الواقعة في «مخلاف جعفر» بدلاً من صنعاء . . . وهذه البلدة تسمى في تاريخ اليمن «مدينة النهرين» وفي الامثال اليمنية :

«ان» ذي جبلـة» لا يدخلهـا الا طاهـر وصباحهـا صبـاح عروس» . . . . . . وبالفعل نفذ المكرم الوصية . . . واختط فيها قصر «دار العز» الذي يطل على النهرين . . . ثم انتقل اليها في مجالي الفرح والغبطة .

و «ذي جبلة» مدينة معتدلة المناخ والهـواء ، ومتوسطـة بـين اليمـن الاعلى والاسفـل ، وفيهـا يخصـب العيش ، وتـطيب الحياة . . . . أنها خصبة التربة ذات ظلال وأفياء . . . يراح الرأس بالتوسد فيها ، والجسم بارتكاء والاستلقاء على ارضها ، وتنفـرج النفس بملذة الخلاء والاعتزال في رياضها بعيدة عن مفاسد المدينة وشرورها وآثامها .

هناك هدير مياه نهريهـا ، تغـريد بلابلهـا ، وحفيف أوراق اشجارها . . . أما اخضرار نباتها ، وتنقـل طيورهـا على الافنـان فيملي الانظار . . . وأما عبـير وردهـا ورياحينهـا فينعش الفؤاد ويحمل الانسان الى دنيا فسيحة يرف عليها ظلال الحب والعاطفـة والجمال . . . . لقد كانت في موقعها وجمالها تعيد الى الأذهان ذكرى

المدنية الانسانية والحضارة التي انبثقت من اليمن ، وحملت الى العالم القديم السادر جمال الفن والعبقرية وهو اثمن ما انتجه العقل البشري ، وأغلى ما ابتكره الفكر الانساني في تلك العصور البعيدة الغابرة .

وكانت «ذي جبلة» في الليالي المقمرة تبدو كعروس جميلة في ليلة عرسها وقد ارتدت ابهى الحلل ، وتوشحت أجمل المجوهرات واللآلىء . . . وكان مشهدها يستهوي الافئدة ويحرك المشاعر . . . . ظلال نديّة ممدودة في كل ناحية . . . وفضاء مكسو باشعة البدر الغضية يتراءى في الدمى المبعثرة فوق الصعيد ، وفي الروابي المورقة الضاحكة وفي الاغوار والابحار والافياء . . . . ونهرين انسابا تحت اقدامها ، فانعكست انوار البدر على صفحتيهما ، وداعب النسيم اغصان الاشجار التي نبتت على ضفتيهما ، مرسلاً حفيفاً شجيا يبعث الفرح ، ويوحي بالامل والرجاء .

* * *

عسعس الليل ، وتكاثفت ظلماته ، ثم تعاقدت الويته ، وراحت «ذي جبلة» تركن للراحة وتستسلم للهدوء العميق ، وهي غارقة في بحر من الآمال والأحلام . . . . فكواكبها قد توارت خلف السحب الوطفاء ، ونشر الغسق ظلامه فهجعت المدينة هجعة الموت المثلجة ، فاذا هي جثة محنطة سكن فيها ضجيج الحياة . . . . الا صوت المياه المتدفقة من النهرين . وحفيف الاشجار والرياحين النابتة على الضفاف والتي تمثل روح الشرق الجميل ، وتنشر روعة الطفل الذي يصب زفزاته الاخيرة في الألوان المتوردة الزاهية ، ويرسل الزبد اللجيني من الموج ليستقر في زرقه الخضم .

هكذا الدنيا ... افراح واتراح ... علو وهبوط ... سعادة وشقاء ... موت وحياة .... انها لا تستقر على حال .... وطالما أصابت بنبالها القلوب المؤمنة ... وها ان المكرم لم ينج من نبالها في هذه الليلة التي غاب بدرها ، ورقد كل شيء فيها .

مسكين الملك المكرم ... كان لساعات خلت ملء السمع والبصر ... كان يطفح بشراً ـ وغبطة وصحة وعافية ... يتبسم للحياة بسمات الامل ... يقود الجيوش الى الساحات ويلقي الكلمات فتتغنىٰ بها الركبان .. فيا للحظ العاثر ... وواسفاه .

مسكين المكرم لم يكد يتمتع بالراحة والسكون في عاصمة ملكة الجديدة حتىٰ داهمه مرض ليس له دواء ... مرض خطير اعجز الاطباء ... انه مرض «الفالج» الذي أصاب نصف بدنه فعطله وجعله عاجزاً عن المشي أو النطق .... واخيراً اشار عليه الاطباء بعد ان يئسوا من الشفاء بالاحتجاب عن الناس ... وهكذا حدث فقد تمَّ نقله الى حصن «التعكر» واوكل بخدمته عدد من الرجال .

ذكر تاريخ اليمن لعمارة :

ان الدولة الصليحية بلغت في عهد الملك المكرم اقصىٰ درجات القوة والمنعة والاستقرار والازدهار والوحدة ، حتىٰ قيل انه قام باعمال تفوق اعمال ابيه .... ويزيد التاريخ فيقول :

كان ملكاً شجاعاً ، وشهماً جوادا ، ومقداماً سموحاً ، وخطيباً مفوها .. وكان يحمل لقب «ذوالسيفين» على اعتبار انه

لم يستطع حمل رمحه وسيفه وقوسه احد . . . وهكذا فان الاقدار لم تمهله لاتمام البناء ، وقطف الثمار ، وتحقيق الآمال .

تزوج «المكرّم» كما ذكرنا «أروى الصليحي» ورزق منها ولدين هما : «علي» و «محمد» وابنتين هنّ : فاطمة . . . وام همدان .

* * *

الفصل الثالث

لم تهن «أروى» أو تتهاوى أمام الحادث الفجائي الجلل الذي اصاب زوجها «الملك المكرم» .... فهذه الأمرأة الحديدية التي عاصرت الاحداث ، وعاشت مع النكبات قابلت المصاب برباطة جأش ومتانة اعصاب وجنان ... فانها ما كادت تفقد الأمل من شفاء المكرم من علته حتىٰ اعلنت عن ملكية ابنها الاكبر «علي بن المكرم» وكان يبلغ العاشرة من عمره ، كما اعلنت عن وصايتها على العرش حتى بلوغ ابنها سن الرشد .

هذا الحديث لم يرض «الامير سبأ الصليحي» الطامع بالملك وبالوصاية ، فاعلن عن معارضته لهذا التدبير ، وايده فريق من رجال الدولة والجيش .... ولكن «اروى» لم تبال بهذه المعارضة فحشدت لها كافة قواتها وامكانياتها ، وقررت ان تقضي عليها مهما بلغ الثمن بالرغم من قوة شخصية الامير سبأ ومحبة الناس وتقديرهم له ، وخدماته السابقة للدولة .

وكانت «أروى» تعلم بكل ما يجري وراء الاكمة .... فهناك افاعي وحيات اخذوا ينفثون سمومهم واضعين نصب اعينهم

ضرب الدولة والقضاء عليها . . . ولكن «اروى» وقفت أمام المصلحة العليا ثم عادت الى نفسها وقالت :

سأقف بالمرصاد لهذه الافاعي ، وسأرد كيدهم الى نحرهم ، واتجنب احداث اية فتنة عمياء . . . . وان الثبات والتأني والصبر هم خير علاج لهذا الأمر . . . وتأتي المساعي الحميدة من قبل المخلصين لتشارك في هذه الرغبة . . . فيدخل عليها «القاضي عمران اليامي» . . . وكان من اصحاب الرأي ، ومن المقربين اليها . . . وبعد ان استراح قليلاً . . . قال :

يجب ان تعلمي ياسيدتي . . . بان النكبة كبيرة ، والفجيعة بالملك المكرم لا تعادلها فجيعة . . فنحن قد خسرنا رجلاً امتاز بفضيلة النفس وسموها وترفعها وورعها وشرفها ، وخاصة في الاحسان الىٰ الضعفاء والمحرومين ، والترفيه عن الشعب ، وهدهدت الام الآخرين .

كان المكرم يا سيدتي تاريخاً كاملاً ، وسفراً من اسفار البطولة . . . . بل كان الاخلاص والتفاني لامته ووطنه . . . كان نسراً لا يمل الصعود في السماء ، ولا تثنيه العوائق عن التحليق في الاعالي . . . وكان يتعشق المجد ، ويفتش عليه ، ويلاقي في سبيله كل تعب . . . وكانت الجراح التي تثخن صدره تنبثق من جنانه ومن كبريائه ، وتمنعه ان يحس انبثاقها . . . . فنشوة المجد هزّت جناحه ، وحفزته علىٰ الايغال في الصعود . . . . احسن الله اليك «يا أبا علي» ومنحك الصحة والعافية بقدر احسانك للناس .

والآن : ماذا وراءك أيها القاضي الفاضل . . . ؟ قالت «أروى»

لا أرى شيئاً جديداً سوىٰ ما يشاع عن معارضة «الاميرسبأ» وصايتك على العرش ، ولهذا جئت ، وفي جعبتي مشروع سأعرض الان عليك .

قل أيها القاضي الجليل . . . فأنا بحاجة الى رايك السديد

أرىٰ ان نعوض علىٰ الامير سبأ بمنصب قيادة الجيش العامة ، وبهذا نكون قد اعطيناه حقه ، وأعدنا الأمور الى مجراها الطبيعي ، وكممنا افواه النافخين في بوق التفرقة والتهديم ولكن من يكفل قبول «سبأ» بهذا المنصب .

لقد تشاورت معه ، واخذت موافقته قبل وفودي عليك .

اني موافقة علىٰ ذلك ، وسأذيع مرسوماً بذلك . . . ولكن لا بد من تبليغ «سبأ» بان عليه ان يتأهب للزحف علىٰ «زُبيد» لان الاحباش بقيادة «جياش بن نجاح» قد عادوا للظهور وحشد القوات ، ومهاجمة قواعد الدولة .

واخيرا :

قبل « الامير سبأ» المهمة ، وزحف الى «زبيد» . . . . وهنالك التقىٰ بالاحباش ولكن مع كل اسف انعكست الأمور هذه المرة ، ولأول مرة ينهزم الجيش الصليحي في معركة . . . فحين بدأت المعركة سيطر الاحباش علىٰ الساحة ، ولم يغرب النهار حتىٰ دارت الدائرة علىٰ جيش الصليحين . . . . ففر الجيش وقتل شقيق «الامير سبأ» «قيس» والأمير «محمد بنْ مهنأ» كما عقرت فرس «الامير

سبأ» ، فاضطر الى السير راجلاً الى ان حمله احد الجنود على جواده .

* * *

ما كاد «الامير سبأ» يصل الى منتصف الطريق الموصل الى «زبيد» حتى اعلن وفاة «الملك المكرم» في حصن «التعكر» . . . . : فزحفت الوفود ورجال الدولة والعلماء والقضاة الى الحصن للاشتراك بأتم الرجل العظيم ، والقاء النظرة الاخيرة على الملك الذي احبه الشعب .

كان «المكرم» مسجّى على فراشه كغصن وارف اذبله الخريف . . . . وا اسفاه . . . . لقد نفذ القدر ، وفاضت روح الملك المحبوب الى خالقها آمنة مطمئنة ، وحمل الضحى النديان اعراف الحدائق المتأرجة التي تسربت الى حجرته في حصن «التعكر» لينة ، واخذت تمتد الى كافة النواحي الغارقة في الصمت والحزن . . . ثم امتدت وامتدت كثيراً حتى تراقص ظلها الخفيف على وجه الملك العظيم ، وأخذ الظل البديع يدغدغ شعره الاشقر المسترسل على جبينه الناصع ، وفوق عينيه المطفأتين .

كان كل شيء ينطق بالحزن والاسى في حصن التعكر» . . . . وظهرت «أروى» على الجموع المحتشدة ، وفي عينيها الدموع . . . فاستقبلها الناس بتقدير وتحية وانحناءة . . . ولم يطل الأمر . . . فحمل الجثمان اخيراً الى مقره ، ودفن بين الدموع والحسرات .

هذا وبينما كانت المعركة قائمة بين الامير سبأ والاحباش . . . مات فجأة «الامير محمد» الابن الاصغر للملك «المكرم» من زوجته

«اروى» فكان الحزن شديداً ، وكأن الاقدار ابت الا ان تعكرّ صفو عيش السيدة الحرة «أروى» وتصيبها بأعز ماتحب ، وهي في بدء حياتها السياسية والملكية . . . ولكن الملكة العاقلة لم تخرج عن وقارها . . . بل قابلت المصائب المتكررة بصبر . وجلد . . . .

أما «الأمير سبأ» فقد وصل الى «زُبيد» . . . . وفي «زبيد» راحت صيحة الحرب تزأر ففيها مثل قصف الرعد وعزف الاعصار . . . انها صيحة مدوية رجفت لها الأرض والسماء . . . في طيها غضبة ، وفي أقرها رهبة اطلقتها ألوف الحناجر الصاخبة التي لحتتها شهوة الانتقام وشريعة الثأر . . . انها النقمة الحبيسة تندفع من عقالها بعد طول احتباس اندفاع الينبوع الغوار . . . . وحم القتال . . . وباتت النفوس في مشافر السيوف ، وفي رؤوس الاسنة ، واستمر القتال منذ الفجر . . . وعند الظهيرة شهد الميدان اشتباكاً غريباً فلم تكن بين المرء وغريمه فرجة ينفذ منها الهواء .

واخيراً :

فتح الاحباش ثغرة في جيش الصليحيين ، ومضت الجيوش على ارض المعركة تختلط وتتلاحم وتتزاحم كموج البحر ابان العاصفة .

وغربت الشمس . . . وقبل ان تتم رحلة النهار . . . بدأت نقطة التحول . . . فأخذ الجيش الصليحي يتراجع من الميدان ، واخذت ارض «زُبيد» تشهد انحلال الجيش الصليحي ولأول مرة . وفي نهاية المطاف :

لم يبق للصليحيين عزم على الثبات . . فغدوا شراذم انهكتها الحرب فمضت تستبق سبيلها الى الفرار . . . في كل مكان . . . وخاصة بعد ان قتل «الامير قيس» شقيق «سبأ» والامير «محمد بن مهنأ» وعقرت فرس «الامير سبأ» فمشى مسافة قصيرة وكاد يقع اسيرا لولا ان يلتقطه احد الجنود ويردفه على فرسه .

بعد هذا الانكسار الغريب عاد أمير سبأ الى «ذي جبلة» ولكن السيدة «اروى» رفضت استقباله وقالت :

انها المرة الاولى التي يخسر فيها جيشنا معركة مع العدو . . . ثم خاطبت الحاضرين من رجال الدولة :

اذا كان «سبأ» قد فشل في ادارة معركة صغيرة مثل هذه . . . فعقرت فرسه ، وعاد ماشيا . . . فكيف سيحكم اليمن ؟

في هذه الاثناء توفي الملك «علي بن المكرم» فجأة ، فالمرض لم يمهله سوى دقائق معدودة ، وهكذا فان مسلسل الآلام مازال يتكرر ويتتابع ويصيب رشاشه السيدة «أروى» . . . والى هنا لم يبق اي وريث من اسرة «علي الصليحي» لحكم اليمن . . . وعندئذ اعلنت «أروى» عن ملكيتها على رؤوس الاشهاد مع احتفاظها بالقيادة العامة للجيش . . . تحت اسم «السيدة الحرة ـ الملكة اروى الصليحي» .

. . . . . .

«الأمير سبأ» في حصن «اشيح» يصول ويجول يعبىء قواته ويجمع انصاره نافخا فيهم حب القتال والثورة ضد الملكة «أروى» . . . مدعيا بان وصية الملك «المكرم» نصت عليه،

مستنكرا اقدام «أروى» على تبوأ العرش دون استشارة احد من رجال الدولة والقواد وأصحاب الرأي . . . اما «اروى» فانها ضحكت من هذا الادعاء وقالت لمن حولها من رجال الدولة :

هذه الوصية التي يتمسك بها «سبأ» غير صحيحة . . . فالملك المكرم في ايامه الاخيرة فقد توازنه . . . واذا كان على الفرض قد كتب هذه الوصية . . . فتكون من الناحية القانونية غير شرعية لان كاتبها كان مريضا .

بعد هذا الفشل الذي اصاب «سبأ» نحاناحية اخرى، وطلع بطلب جديد . . . فأرسل عددا من رجال الدولة وعرضوا على «أروى» فكرة الزواج من «سبأ» وذلك حرصا على وحدةالصف ومصلحة الدولة العليا . . . ولكن «أروى» غضبت غضبا شديدا وقالت للوفد كلمتها المشهورة :

«أروى الصليحي لم تخلق للفراش ، وانما خلقت لتحكم»

وهنا رأى «سبأ» ان يخرج عن قاعدة الهدوء والسلام ، ويتوجه الى الحرب ، فجمع جموعه وجاء على رأس جيشه الى مدينة «ذي جبلة» وكان غرضه اظهار قوته وترهيب الملكة ، ولكن «أروى» ردّت عليه بان استنفرت قواتها وحشدت جيشها وانذرته بالرجوع وألا الحرب . . . وعندئذ كان لابد للقائد «عامر بن سليمان» من التدخل والتوسط حفاظا على المصلحة العامة . . . فاجتمع الى «الأمير سبأ» وأشار اليه بالعودة ، والاتصال بالخليفة «المستنصر بالله» ، واقامته حكما فاصلا ، فاستجاب «سبأ» لنصيحته ، وعاد مع جيشه الى قاعدته «أشيح» . . . ومنها ارسل رسولين الى

القاهرة ، فعادا ومعهما كتابا من الخليفة يطلب الى «أروى» القبول «بالامير سبأ» زوجا . . . حرصا على سلامة الدولة . . . لكن «اروى» رفضت الطلب باباء وقالت :

نصائح الخليفة المستنصر بالله مقدسة عندي . . . ولكنها مرفوضة لاني اعتبرها تدخلا في الشؤون الخاصة . . . واستمرت «أروى» برفضها الشديد ، وعززت قوتها واستئثارها بالملك ، ومنعت «سبأ» من تحقيق اي انتصار . . . واخيرا :

فاء الامير سبأ الى ظلال الهدوء والراحة ، واعتزل الناس في حصن «اشيح» . . بعد سلسلة من الفشل الذي رافقه في اخر حياته . . . واخيرا : مات سنة ٤٩١ ه وشيعته الملكة أروى الى مقره الاخير . . . وبموته انطوت اخطر شخصية معارضة للملكة اروى . . . وعلى العموم . . . فان «سبأ» كان من القواد الكبار . . . بالرغم من الفشل الذي مني به في المعركة الاخيرة مع الاحباش . . . وقد وصفه تاريخ اليمن بقوله :

كان فاضلا ورعا تقيا . . . ماوطىء امة قط ، ولاشرب مسكرا . . . كريم طيب يقصده الشعراء وأصحاب الحاجات . . . وكان فصيحا وشاعرا يجيب الشعراء على قصائدهم ويجيزهم ويزيد في برهم . . . وفي ذلك يقول الشاعر القمي :

ولما مدحت الهزبري ابن احمد
اجاز وكافاني على المدح بالمدحِ
وعوضني شعراً بشعرٍ وزادني
عطاءً فهذا راس مالي وذا ربحي

بعد هذا . . . اجتمعت الكلمة على زعامة «أروى» ، واصبح كل شيء يسير في طريقه السوي في ربوع اليمن ، واصبح «لأروى» دولة كبيرة لها جيشها وقوادها ورجالها وأموالها . . . ويبزغ الفجر الندي ، وتهب النسمات عذبة منعشة ، ويتفتح الورد في براعمه نافضا عنه قطرات الندى البليل . . . وبقي النشيد الذي صاغ معانيه ابطال «حراز» يردد في هذه القلاع والحصون . . . وفي الذروات والسفوح . . . وهكذا الأعلام التي صبغت بدماء شباب العرب الحمراء . . . فانها لاتزال ترفرف في ذرى اليمن السعيدة حاملة النصر الذي ادركوه غضا جنيا . . . وهكذا الحرية الغالية التي كانت مدفونة في هذه الديار قد بعثت حية في الجبال ، واصبح اليوم من حقها أن تطمئن الى المرح والدعة .

فغداً سيأخذ اطفال اليمن الأوتار ليعزفوا نشيد النصر ، وستحمل في نغماتها اعراف المعارك ، والحان الانتصارات . . وسيفوح العبير عطراً ذكياً الى امكنة بعيدة عبر الغرب والشرق . . وستنحدر الينابيع الثرة الدافقة من هذه القمم ، وسيؤمها العطاشى من الناس ليبللوا نفوسهم الظمأى . . منشدين نشيد «ذي جبلة» الخالد .

* * *

جلست «الملكة اروى» في احدى مقصورات قصر «دار العز» . . وكان الوقت صباحاً وهي تتأمل جمال الطبيعة المتمثل في الورد . . في الاغصان . . في الطيور . . في الاشعة التي يرسمها الطفل على صفحات «النهرين» وهما في سيرهما الطويل . . في السحب اللجينية المتقطعة في الافق الافيح . . في قطرات الندى

اللؤلؤ ية التي هبطت لتبرد غليل الزهور والرياحين .

و «دار العز» هو قصر ملوك الصليحيّين في «ذي جبلة» . . وكان قائماً على ذرى هضبة متوسطة العلو . . ومطلاً على الضواحي والمرابع البعيدة ، وعلى النهرين . . ففي ذلك الصباح كانت اروقته وأعمدته وأفنيته الحالية بالانصاب والتماثيل والزخرف والنقش ، يسودها الهدوء الشامل الذي لا يعكره الا حركات العبيد والحراس وتنقلاتهم .

وغاصت الملكة العظيمة في بحر من التأملات ، واطلت عليهاالذكريات الحزينة التي زخرت بالمشاهد المؤلمة ، والصور القائمة والاحداث العنيفة . . لقد كانت وحيدة في قصرها وامامها هذا العالم الفسيح على رحبة .ؤ والصباح الاغر يوحي بسحره وجماله مما جعل افكارها تتفتح ولسانها ينطق فتقول :

ايها الصباح . . ان جمالك يملأ نفسي خشوعاً، وفؤ ادي املاً ورجاء . . في عالمك تسبح القلوب المؤمنة . . وفي ارجائك تتصاعد الصلوات الحارة . . الله . . الله . . لقد بردت غليلي ، وأطلقت لساني بالشدو والغناء . . . ولكن اغاني الشجية لا تجد من يسمع صداها في هذه الربوع . . فالذين كانوا يطربون لجرسها ، ويستسيغون نغمها قد اخرسهم الموت . .

ايها الصباح الجميل . . يا مثوى الدعة . . والنعيم الدائم . . انت الذي الهمني الصبر وفتح بصيرتي على الرؤ ية البعيدة . . بل انت الذي اعاد الى نفسي صفاءها وحياتها .

هذا ولم تكد الملكة اروى تنتهي من هواجسها ومناجاتها

حتى دخل عليها القائد «المفضل الحميري» وكانت امس قد حددت له ساعة الصباح موعداً لمقابلتها . . وبعد ان حيا اخذ مكانه . . فقالت له :

رغبت بمقابلتك «يا مفضل» . . وقصدي التحدث اليك ، بعد ان خطف الموت قوادنا الكبار واحداً اثر الآخر ، ولم يبق من هذا الرعيل من نعتمد عليه سواك . . الآن . . لقد اخترتك لقيادة الجيوش . . فماذا تقول ؟

ليس عندي اسعد من اليوم الذي انفذ فيه اوامر سيدتي الحرة «الملكة اروى» . . فأنا لا اعتقد ان النفوس التي تعشقت المجد والحرية والعيش الرغيد تأبى سماع قيثارة المجد المنشدة المفردة . . ولا اخال الجيوش التي سأتولى قيادتها تأنف من ترديد النغم الحماسي الذي يقربها من النصر ، ويدنيها من حياة العز والشرف .

اوصيك يا مفضل ان تجعل احتلال «زبيد» هدفك ، والقضاء على جيش الأحباش رائدك . . وعليك ان تبذل كل ما بوسعك ليكون عدد الضحايا من جنودنا قليلاً . . اجل . . اريد ان تتعجل بالسفر ، وعليك ان تتولى قيادة السفينة بما عرف عنك من دراية وخبرة في تصريف امور الحرب والسياسة . . وبعد عودتك من قتال الاحباش اريدك ان تذهب الى «عدن» لمحاسبة «آل زريع» الذين اعلنوا العصيان ، وأخذوا يتصرفون بخراج «عدن» وبعد ذلك عليك ان تهمس باذن «علي بن سبأ» صاحب حصن «قيضان» بان لا يلعب في النار ، ولا يركب هذا المركب الخطر . . فتحت الرماد نار كامنة اقل نفخ يحركها ويضرم سعيرها . . سأذيع

اليوم امراً على الجيش بهذا التعيين . . فكن كما عهدتك والله يوفقك ويرعاك .

خرج القائد «المفضل الحميري» من القصر الملكي ، وباشر على الفور بالاعداد للمعركة . . وبعد يومين زحف الى «زبيد» . . وهناك التقى بالاحباش . . فكانت المعركة منذ الجولة الاولى تأخذ وضعاً شديداً أكثر احتداماً وعناداً . . فالفريقان بذلا الجهود . وجادا بالدماء ليسبق كل واحد منهما الآخر الى الهدف . . وقاتل الاحباش بعناد قتال اليائس ، وحاولوا صد الهجوم العنيف المنظم دون جدوى . . اما المفضل . . فكان في المقدمة يعطي الاوامر ويخترق الصفوف بعزيمة وإيمان ، ويسد على الاحباش منافذ الطرق ، مطيحاً بالرؤوس ، مقسماً ان لا يتراجع الا بعد ان يلقن الاعداء درساً قاسياً .

وفي نهاية المطاف ترك الاحباش وراءهم ذل الانكسار . وعاد الفرار ، وانتهت معركة «الثأر» بعد ان حقق «المفضل الحميري» انتصاراً تحدثت به الركبان . . وبعد ان وطد الامن والاستقرار في ربوع زبيد وما يتبعها ، عاد الى «عدن» فحارب «آل زريع» واسترجع منهم الخراج ، وجاء برؤسائهم الى «ذي جبلة» حيث اعلنوا عن طاعتهم . . وهكذا بالنسبة «للامير علي بن سبأ» فانه زحف اليه الى حصن «قيضان» وقبض عليه ثم جاء به مخفوراً الى «ذي جبلة» . . ولكن الملكة اروى عفت عنه بعد ان اعلن عن ندمه ، وفاءه الى الصواب مؤثراً العيش في «ذي جبلة» .

* * *

لـم تكد الـدنيا تبتسـم للملـكة «أروى» وتمـدّ يدهـا اليهـا بالعطاء . . . حتى عادت الى سابق عهدها ، وهي اشـد ماتـكون عبوساً وتجهماً . . . فكأنما هذه الدنيا الغريبة تأبـى ان تستمـر على حال من الاحـوال . . . وهاهـي الآن تأتـي لتنكبهـا «بالمفضـل الحمـيري» . . . وهـو أعـز انسـان عليهـا واخلصهـم واكثرهـم معرفة . . . وكان من القواد الكبار الذين رافقوا الدولة الصليحية منذ تأسيسها وتربوا في حجرها وأدوا لها اوفر الخدمات .

اجل . . . لقد جاءالموت ليخرس القائد الكبير ، «المفضـل الحميري» الرجل الذي لم يخسر معركة او يفر من ميدان . . . فمات مأسوفاً عليه من جنده ومن كل عارفيه . . . وهرعت الملكة الى منزل قائدها المظفّر لتلقي عليه نظرة الوداع ، ولتشترك بتشييعه الى مقره الاخير . . . وعادت وهي تندب حظها وتبكي الايام التي ابت الاّ ان توجه سهامها ونبالها الى صميمها . . . فهي لاتكاد تودع عزيز حتى تنكب بآخر وهكذا دواليك .

وعادت الى نفسها بعد الحادث الاليم ، تتساءل عن الرجل الذي يمكن ان يخلف «المفضل» وبعد تفكير طويل ومشـاورات ، وقع اختيارها على «الامير اسعد» ، وهو ابن عم «المفضل» . . . . فتسلم المسؤولية الكبرى ، ويبدأ يقـوم بأعمالـه القيادية المطلوبـة منه ، كتأديب العصاة والقضاء على الثورات والمتمردين . . . ولكن التجاريب مع كل اسف اثبتت انه لم يكن مثل بن عمه ، وانه دون هذا المستوى المطلوب . . . مما حمل الملكة اروى على اقصائـه عن الجيش ، بعد ان وصل في عهده الى حالة من الانهيار . . . . بعد ذا

توقفت اروى عن التفتيش على قائد آخر . . . وفقدت ثقتها بالقواد اليمنيين مفضلةً ان تجعل القيادة بأيدي غريبة . . . ولمّا كان ذلك يتطلب وقتاً طويلاً . . . فانها تقدمت وتسلمت القيادة بنفسها وخرجت على رأس جيشها لمحاربة المعارضين والمنشقين بهدوء وصبر واقدام . . . وقبل انطلاقها وجهت هذه الكلمة الى جيشها فقالت :

ايها الفرسان المساعير . . . عليكم وضعت اعتمادي واتكالي . . . فكونوا كما اعهد بكم اشداء وأقوياء ، وغلاظ القلوب . . . واياكم والتسامح مع بلد يعلن العصيان ، اومع قبيلة تأبى ان تستجيب للنداء . . . لاتناموا على نصر ، ولاتندموا على مافات ، واعلموا انكم تدافعون عن حق وطنكم وامتكم ، وان التاريخ سيسجل على صفحاته بطولاتكم . . . عليكم وحدكم يتوقف تنظيف اليمن من عناصر الشر والفساد . . . فشمّروا عن ساعد الجد . . . وجردوا سلاحكم وتعالوا نقيم على ارض اليمن حكماً عادلاً تتجلى فيه المساواة والاخاء والشورى والحرية .

اني الآن اتولى القيادة بنفسي ، بعد ان فقدت الثقة بكل الناس . . . وسوف لااسمح للايدي العابثة المستهترة ان تتولى قيادتكم والسير بكم في الطرق المظلمة . . . فأنتم من الشعب ، والشعب له الحرية بالتعبير عن اماله ، وبتقرير مصيره .

وخرجت الملكة الحرة على رأس جيشها وحاربت المنشقين والمعارضين ، وفي مدة قصيرة تمكنت من القضاء على الثورة التي قامت في حصن «اشيح» والثانية التي استهدفت الاستيلاء على «صنعاء»

هذا الوضع لم تكن «أروى» راضية عنه . . . فأعمال القيادة جعلت تنفيذ المشاريع الاصلاحية متعذرة . . . وهذا ماجعلها تكتب الى الخليفة المستنصر بالله طالبة منه ان يختار لها قائداً مجرباً ليتولى قيادة جيوش اليمن ، ويعاونها في ارساء قواعد الامن والاستقرار . . . ولكي يصبح لديها الوقت الكافي لانجاز الخدمات والاصلاحات التي وعدت بها الشعب اليمني .

* * *

لبّى الخليفة «المستنصر بالله» طلب السيدة الحرة «أروى» . . . فاختار «القائد علي بن ابراهيم» «نجيب الدولة» وطلب اليه اصطحاب اربعمئة جندي ارمني ، وسبعمئة آخر من زنوج السودان وأفريقيا ، والسفر الى اليمن ليكونوا تحت الخدمة وبأمرة الملكة اروى . . . . وهؤلاء من الذين خدموا في الجيش المصري وبرعوا في فن الرماية .

وبعد ان اتمّ «نجيب الدولة» انتقاء الجنود واعدادهم للسفر . . . جاء الى قصر «الزمرد» الكائن في القاهرة «المعزيّة» . . . وهو قصر الخليفة الذي بناه اجداده ، وجعلوه كعبة للقصّاد ، وملجأ لاصحاب الحاجات ، وندوة للعلماء وللفقهاء وأهل الفضل . . . وهناك وقف امام «المستنصر بالله» وقال :

جئت يامولاي للمثول بين يديك . . . بعد ان اصبح كل شيء جاهزاً للسفر الى اليمن . . . فأرجو ان لاتضن عليّ بدعائك ورضاك ونصائحك . فأجابه الخليفة :

انت الآن . . . يانجيب الدولة . . . ذاهب الى بلاد بعيدة لم يسبق لك ان زرتها أو عرفت طبيعتها . . . واخلاق اهلها . .

وماتنطوي عليه نفوسهم . . . ان مهمتك هي قيادة الجيش محارب عليه مهمات كبرى . . . فحاذر ان تجعل افراد هذا الجيش يشكون بك ، او ينفرون منك او يشعروا انك غريب عنهم ، او على مستوى منهم . . . اريدك بمجرد وصولك الى اليمن ان تقوم بجولة لدراسة طبيعتها وجبالها وسهولها واحوال قبائلها وكل شيء . . . وعليك ان تكون قاسياً وليّناً في آن واحد ، ومتحلياً بالاخلاق والعطف على الناس وخاصة على الجنود الذي يحاربون تحت رايتك .

ولا تنس يانجيب الدولة بأنك ذاهب لتعمل تحت امرة الملكة اروى . . . وهذه المرأة على جانب كبير من الذكاء . . . وبعد النظر والرجولة . . . فلاتحاول ان تستفذها او تخرج على اوامرها ، او تخدش شعورها . . . لانها حساسة ولاتتحمل الزهو والكبرياء ولو من اقرب الناس اليها . . . انها امرأة فذة تتميز بالقوة والشجاعة والعلم ، وتعتز بأصالتها العربية وبقدم اسلامها . . . وفوق هذا فانها تتعشق البطولات وجلائل الاعمال وخدمة امتها ووطنها . . . وهي ندية الكف ، طيبة القلب ، كثيرة العدل . . . تطل على اليمن من عالم مفعم بالطمأنينة والخير والسمو . . . . . احذرك من رفاق السوء . . . وادعوك الى الحفاظ على اسرار الجيش والدولة . . . والى معالجة المصاعب الطارئة بالصبر والثبات والتأني .

اريدك ان تتعجل بالسفر . . . وعليك ان تتولى ادارة العمل الموكول اليك امره فور وصولك بما عرف عنك من مقدرة ودراية بتصريف الأمور . . . ولا تنس ان تظل على اتصال بي .

* * *

وصل «نجيب الدولة» الى احد ثغور اليمن البحرية . . .. فاستقبله عدد من رجال الدولة الذين اوفدتهم الملكة للترحيب به . . . ومن هناك توجه مع جنوده الى «ذي جبلة» . . . فقابل الملكة اروى وسلمها رسالة الخليفة المستنصر بالله ، والمرسوم الذي يقضي باسناد قيادة جيوش اليمن اليه . . . وهنا كان لابد للملكة من الترحيب به ، والادلاء اليه بتوجيهاتها وتعليماتها . . . واخيراً :

سلمته مهماته ، وحددت له الصلاحيات ، وأطلقت يده بالعمل . . . وفي مدة قصيرة تمكن من اعادة النظام والاستقرار والهيبة الى الجيش ، كما ادخل على نظامه القوانين الجديدة والاصلاحات التي تتلاءم وطبيعة الشعب اليمني ، وبعد ان تم له ذلك . . . وصلت معلومات الى الملكة عن حركة عصيان في بلاد «الخولانيين» ترافقها عمليات تخريب وقرصنة وخروج على الامن والقوانين ، ومحاولة احتلال بعض الحصون والقلاع . فزحف وفي المكان المقرر خاض عدة معارك معهم . . . وفي نهاية المطاف قبض على رؤسائهم واحضرهم الى «ذي جبلة» ولم يفرج عنهم إلا بعد ان اعتذروا للملكة ، وأعلنوا على رؤوس الاشهاد عن ندمهم وطاعتهم .

ومضت الايام . . . ونجيب الدولة في «ذي جبلة» يعاون الملكة في بعض شؤون الحكم الى ان وصلت معلومات عن قيام حركة معارضة او ثورة في «صعدة» صعدتها بعض الفئات من همذان التي كان استسلامها عن رهبة وخوف . . . والآن : فانها اعتقدت بأن الدولة لم تعد تمتلك القوة لمحاربة الخارجين . . .

فزحف نجيب الدولة . . . وبعد سلسلة من المعارك تمكن من القضاء على العصيان . . . وأعاد الامور الى طبيعتها فأثبت عن جدارته ، وأهليته للاضطلاع بالمسؤولية .

أما الملكة اروى فانها تفاءلت بهذه الانتصارات . . . وقالت الى نفسها : ربما كانت فاتحة عهد جديد . . . وكانت في قصرها «دار العز» والوقت مساءً . . عندما فاءت الى الراحة باحدى الغرف المطلة على «النهرين» . . . وعادت الى نفسها تتساءل ، وغاصت في بحر عميق من التفكير ، ولم تحس بالبرد اللاذع الذي تسرب الى ارجاء القصر ، والى الغرف والاروقة والشرفات . . . في تلك الدقائق طاف خيالها في السفوح والاودية والسهول . . . في الروابي والمرتفعات في كل مكان . . . وراحت تفتش عن كنف تفيء اليه ، وعن ناحية تستريح فيها بعد هذا العمر المديد . . . وكانت كلما عاودتها الذكريات . . . ذكريات زوجها الملك المكرم ، وولديها علي ومحمد وقواد جيشها الذين تخطفهم الموت واحداً اثر واحد تغمض عينيها محاولة النسيان . . . ولكن دون جدوى . . . ويزداد الالم ، وتهجم الاحزان عندما تفتش في زوايا المملكة وفي كل مكان فلاتجد وريث يمتلك الاهلية لعرش اليمن .

كانت تقول الى نفسها : لك الله ياأروى . . . لم يبق لك اي امل . . . فهذه ذي جبلة بالرغم من ركود حسها وخمود اسمها استطاعت ان تطوي في ذرواتها وأوديتها عالماً كبيراً كان للامس القريب يطوي في لججه الزاخرة كل العالم . . . وهاهي ذي جبلة المتمردة وصاحبة العز والجبروت والترفع على الغزاة والفاتحين

اصبحت عاجزة عن ايجاد رجل يتولى الملك . . . فهل تتحول بعد ذلك الى مدينة رازخة تحت الاستعمار . . . وهل سينطفيء هذا النشيد الذي صنعنا الحانه من معاركنا الظافرة ، وتزول عن هذه الحصون والذروات الاعلام التي صبغناها بدماء ابنائنا ؟ . . . . كل ماأخشاه ان لاترفرف هذه الاعلام في القمم وشرفات المدن . . . وهكذا ينابيعنا لاتتدفق ، واغصاننا لاتورق ، وزهورنا لاتفوح .

مسكينة اروى . . . كل شيء في حياتها اخذ يسير رويداً رويداً نحو النهاية . . . كانت تشعر بأنها قد اصبحت على عتبة الشيخوخة . . . وان ملك الصليحيين بعدها سيئول الى المجهول .

عاد الاحباش في تهامة وزبيد إلى سابق عهدهم . فأعلنوا العصيان والثورة من جديد ، واخذوا يقومون باحتلال بعض المواقع والحصون، غير حاسبين للدولة اي حساب . . . . فأمرت الملكة اروى نجيب الدولة بالزحف على تهامة وزبيد لمحاسبة الاحباش على خروجهم وعصيانهم والقاء الدروس القاسية عليهم . . . فانطلق نجيب الدولة من «ذي جبلة» في الطريق الطويل على رأس جيشه ، وراحوا يقطعون الفيافي والقفار بعزم وقوة وكلهم في شوق للوصول الى الهدف . . . الى زبيد البلدة التي عرفوها ، وخاضوا غمار المعارك على ساحاتها . . . لقد كانوا في سيرهم صامتين لايعكر صفو صمتهم سوى حفيف النسيم وصدى قرقعة السلاح ، ووقع حوافر الخيل . . . . فالمشاعر لها في القلوب اصطفاق . . . وكانت تتدافع وتتراجع لديهم ، وقد اثارها السكون الذي لفّ الكون ،

وأهاج ذكريات النفس ، وبعث خواطرها الدفينة فوّارة كماء الينبوع الرقراق .

كانت الخيول السائرة الى الحرب . . . تصهل صهيل الفرح والحماسة ، وترسل من قلوبها المتلهفة انغاماً ممزوجة بالصحة والعافية . . . وكانت قلوب الجند مشوقة وعيونهم نفاذة ، وامنيتهم ان يقطفوا الجني الشهي . . . فكل راكب وراجل منهم يعرف قصده ويعي واجبه ، ويسير على جادة الصواب .

السيوف الممشوقة تلمع في الفضاء ، والرايات ذات الالوان المختلفة تخفق في السماء حاملة كل معاني الفتح والعزة والخلود . . . . وهي تشق بحفيفها وخفقها الفضاء . . . واخيراً :

وصلت الجيوش الصليحية الى ضواحي «زبيد» فالقت عصا الترحال ، وأخلدت للراحة . . . وبعد يومين من التأهب والاستعداد التقى الجيشان ودارت المعركة على مقربة من زبيد منذ الصباح ، واحتدمت في آخر النهار . . . ثم استؤنفت في اليوم الثاني . . . وكان الاحباش قد تمكنوا من التغرير بعشرة رجال مكن رماة الأرمن . . . فاستمالوهم الى جهتهم . . . وعندما حمي وطيس المعركة رمى احدهم انف فرس «نجيب الدولة» بسهم فأصابه ، وعندما شبّ الفرس ووقع على الارض ، سقط نجيب الدولة عن ظهره . . . وعندئذٍ اختلط الحابل بالنابل . . . ثم انجلى الموقف بعد مدة قليلة عن هزيمة الصليحيين ، ووقوع عدد كبير منهم في الاسر . . . أما الجنود «السود» فقد قتلوا عن بكرة ابيهم ، ولم ينج من الأرمن سوى خمسين . . . وأما نجيب الدولة فأنقذه جنود «يام»

عندما احبطوا محاولة الاحباش في القبض عليه . . . واخيراً اردفه احدهم على فرسه وعاد به الى «ذي جبلة» .

هذه المعركة الفاشلة التي قادها «نجيب الدولة» . . . جعلت الملكة اروى تفقد ثقتها بهذا القائد الضعيف . . . ثم تبادر في مجالسها الى مهاجمته والتنديد باهماله . . . خاصة بعد ان تأكدت من فقدان عدداً من جنودها وخيولهم . . . وعندما سمع بما تقوله عنه قال :

«لتقل ماتقول فانها قد خرفت واصبح من الواجب حجرها»

هذه الكلمات اثارت حفيظة الملكة اروى . . . فأرسلت كتاباً الى الخليفة المستنصر بالله ، وأطلعته على كل ماجرى . . . دون ان تجعل نجيب الدولة يشعر بما تدبره .

* * *

لم توقف الملكة اروى نجيب الدولة . . . بل اعطته فرصة ثانية لاصلاح الاخطاء ، ومنحته صلاحية اعداد الجيش وتنظيمه من جديد . . . وتشاء الظروف في ذلك الحين ان تقوم بعض القبائل فتعلن الثورة والعصيان على الدولة مستغلين تحطيم الجيش في معركة «زبيد» . . . وهنا كان لابد للملكة اروى من ان تأمر نجيب الدولة بالزحف لتأديب العصاة . . . فنفذ الامر . . . والتقى بهم . . . وبدأ القتال الذي لم يستمر سوى يومين . . . حيث في نهايتها دحرت القبائل نجيب الدولة وقواته . . . فتراجع الى قرية «الجند» ذات السور المانع واعتصم فيها . . . ولمّا ضيّق عليه الاعداء الحصار ، واصبح جيشه بحاجة الى طعام . . . ارسل الى الملكة اروى يستنجد بها ويطلب منها انقاذ الموقف . . . فاستدعت

«عمر والجبني» وهو من القواد المجربين . . . فجاء الى «ذي جبلة» واتفقت معه على القيام بمغامرة لانقاذ الجيش المحاصر . . . فبعثت معه الى قواد القبائل الثائرة التي تطوق نجيب الدولة مبلغ عشرة الاف دينار مصري . . . وفي الوقت نفسه ارسلت من اشاع في المعسكر بأن نجيب الدولة ارسل الى القواد مبالغ كبيرة من الدنانير المصرية لتوزيعها على الجند . . . فلما علم الجنود بذلك طالبوا بحصصهم من الاموال . . . ولكن القواد وقعوا في حيرة لأن المبالغ التي تقاضوها لاتفي بما يطلبه الجنود ، وهذا ماجعلهم ينفون الخبر . . . ولكن الجند الذين تأكدوا من توزيع الاموال وشاهدوا بعض الدنانير يتناقلها رفاقهم توقفوا عن القتال وتنادوا للرحيل ، ولم يبقى احداً منهم . . . وعندئذ خرج نجيب الدولة وجيشه سالماً . . . وعندما تساءل عن الخطة ؟ قيل له :

«هذا تدبير من قلت عنها انها خرفت»

وعندئذ هرع الى «ذي جبلة» واعتذر . . . ولكن هذا الاعتذار لم ينقذه من العقاب الشديد . . . فكلمته التي اطلقها على الملكة اروى امس . . . وصلت الى الخليفة المستنصر بالله . . . وكان ان ارسل «الامير الموفق بن الخياط» في مئة فارس الى اليمن للقبض على نجيب الدولة والعودة به الى القاهرة . . . ولكن الملكة اروى ابت ان تسلمه على اعتبار انه ضيفها إلا بعد ان اخذت تعهداً بأن لايمس بأذى .

بعد ذهابه عهدت الملكة اروى الى «علي بن عبد الله الصليحي» بمهمة قيادة الجيش . . . فأثبت عن جدارة ، وحافظ على

هيبة الدولة ، وصان حدودها ، وظل قائما بالمسؤولية حتى بعد وفاة الملكة عام ٥٣٢هـ .

ومن الواضح . . . ان مرحلة الانهيار ، وعوامل الانحلال ، والشيخوخة اخذت تدب في جسم الملكة الصليحية الكبرى وذلك بعد وفاة الملكة «اروى» . . . وكان اول الغيث خروج تهامة وزبيد وعدن ، وعودة بعض القلاع والحصون والامارات الصغيرة الى سابق عهدها ، وحلول عصر جديد من عصور الغزوات ، وشريعة الغاب .

● ● ●

في خاتمة المطاف لابد من القول :

اذا كانت الدولة الناهضة في العصر الحاضر تعمل على تنمية اقتصادياتها . . . بشتى الوسائل لاسعاد شعوبها وتوفير الرخاء لأكبر عدد من سكانها ، ورفع مستوى المعيشة بين افرادها . . . فإن الملكة اروى لم تترك فرصة تمر إلا وعملت وبذلت كل عنايتها في سبيل الهدف المنشود . . . فاهتمت بالصناعة والتجارة والمواصلات ، واستعانت بالخبراء والمستشارين من الدول الاجنبية . . . كما انها اولت الزراعة والفلاحة اهتماماً خاصاً لانها كانت تعتقد ان هذه الطبقة العاملة الفقيرة المحرومة يجب ان تنال حقوقها وان يمنع الولاة والزعماء من التحكم بها واستعبادها ، وان مثل هذه المباديء كانت تلاقي كل قبول من قبل الطبقات العاملة ، ويحول دون انتشار روح التذمر . . . من جهة اخرى فإن الملكة اروى عرفت قدر التجارة ، وانها من دعائم الاقتصاد الوطني . . . ولهذا كان لابد من الاعتماد على المواصلات ، فهي الدعامة الكبرى

لتسهيل نقل الحاصلات . فعبدت الطرق وأولت حركة البناء والتعمير اهتماماً زائداً . فانشأت المدارس ، وبنت المصحات والمساجد والحدائق ، ورخصت الاسعار ، ووفرت المواد الغذائية المطلوبة . . . وشقّت الطرقات حتى البحر ليسهل نقل الصادرات والواردات . . . ومن مآثرها انها منحت رعاياها في عموم اليم حرية الاعتقاد وممارسة الطقوس الدينية . . . وكل هذا فاخرت به الملوك ، واستمدته من مصلحة الشعب ، متيحة الفرصة لجميع الكفاءات والقدرات بالتعاون معها لبناء الوطن الذي كانت تعتبره ملكاً للشعب وليس لاحد من اسرتها .

ان عصر الملكة اروى يعتبر عصراً بعيداً ولكنه رائع وجميل، وتتجلىّ فيه روح الطموح والمغامرة والتطاحن السياسي والمؤامرات والقتل والحروب . . . كما نلمس فيه الثبات على المبادىء والصبر على المصائب ، والوفاء والكرم المستمد من سحر الشرق وروحانيته وايمان العرب الراسخ بوطنهم وامتهم .

